أحـلام أحـلام

أحـــلام أحـــلام

رواية

ديانـــا روز

اسم الكتاب: أحلام أحلام
اسم الكاتب: ديانا روز
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد إبراهيم
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى ٢٠٢٠
رقم الإيداع: 2019 / 27604

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهداء

أمي.. لا تزال ذاكرتي مملوءة بمواقف وحكايات وطرائف ونصائح وتوجيهات لا أنساها، ولن أنساها.

إلى روح والدتي التي لن تقرأ ما كتبتُ

إلى زوجي الذي شجّعَنِي وكتبتُ

إذا أردتَ شيئًا يتآمر الكون كله لمساعدتك على تحقيقه

((باولو كويلو))

الحب ككل القضايا الكبرى في الحياة؛ يجب أن تؤمن به بعمق.. بصدق.. بإصرار، وعندها فقط تحدث المعجزة.

((أحلام مستغانمي))

بغداد تصرخ والأعراب يشغلها.... حكمُ العبيد بعيدُ العزّ والكرم
يا روح دجلة للأرواح مالكه... تبكِي عليك العيون قلَّ ما تَنَمِ
تبكي عليكِ عيونٌ غاب بؤبؤها.... وذي سيوف لطعْمِ الطعن تلتهِمِ
تبكي عليكِ عيون ذبن من أرق... وبي عذابٌ بريح الغدر من دَلَمِ

المتنبي

حيث ألتفت أرى ملاحم موطني
وأشم رائحة التراب ترابي
لم أغترب أبدًا فكل سحابة
زرقاء فيها كبرياء سحابتي
بغداد يا هزج الأساور والحُلَى
يا مخزن الأضواء والأطياب

نزار قباني

الفصل الأول

تجلس على تلك الأرجوحة تتذكر ما كان يومًا من الأيام حاضرًا، وأصبح ماضي أصوات أطفالها المتعالي وهي تراهم يتراكضون خلف بعضهم بعد أن عاشت معظم حياتها بهدوء كبير، حتى دخل إلى حياتها هو وقلَبَها رأسًا على عقب.. تُمسكُ كتابًا في يدها، تقرأ قليلًا ثم تتركه؛ لتركض هي الأخرى خلف الأولاد كي تعيد طفولتها التي ضاعَت في زمن لم يعِش أحدٌ من جيلها طفولته، بينما كانت أصوات الطلقات وأصوات صرخات مخيفة هنا وهناك هي ما يتحكم بذلك الواقع.

عاشت في وطن كانت آلامه تعتبر أسلوبَ حياة، ووجعه قصة تتلوها الجدات في مساءات مظلمة حينما ينقطع النور وتضيء شمعه؛ لكي تنير المكان، لم يكن لديها هاتف نقال كي تتصفح الإنترنِت، ولكن كان لديها كتاب تتصفح فيه الكلمات، لا زالت تشتاق لطفولة بريئة وعمر انقضى بين الدموع والدماء.

لازالت تتمنى لو إحدى أحلامها تتحقّق، ويتحقق معها السلام الذي تصلّي من أجله في كل ركعة صلاة، لا زالت تريد لنفسها ولأطفالها أن يعيشوا مالم تعشه هي، ولا زالت تحلم بوطن تلتَئِم فيه كل الجروح، ويتوقف عنه النزيف.

وطني يا جرحٌ لا يلتئم رغم الضمادات، ماضيه أجمل من حاضره.. ومستقبله لم نعُد نشعر أنه قادم، بلد الحضارات أي نعم.. نتغنّى بأمجاده الماضية..

نبكي على حاضره المدمَى.. ونخاف من مستقبله المجهول، وحياتي مثل وطني أو بعض مثلي، تتجمع الذكريات الجميلة في الأمس، ويلفها حزن اليوم.. ونخاف من غد.

هكذا أنا مثل وطني... وهذه حكايتي...

ما زلتُ أذكر كل لحظة في حياتي عشتها، ذاكرتي قوية جدًا، لم أنسَ أية تفصيلة صغيرة، حتى أنني أتخيّل بعض الوقائع التي حدثت معي وأنا ما زلت طفلة ذا ثلاثة سنوات، لكنني اليوم أتحدث عن فترة كانت الأهم في حياتي؛ لأنها جعلتني أدرك أن الحياة فيها جوانب عديدة لم أكن قد تعرّفتُ عليها، كما اكتشفتُ أن الحلم ممكن أن يتحقق، وأنّ كل شيء نثابر عليه ممكن جدًا أن نصبو إليه.

حينما أتذكّر الآن أتألم، لكن ألمي خفّ مع الزمن، صدَقَ من قال إن الزمان يتكفّل بشفاء الجروح، وأن القلم يستطيع أن يصبّ كل المشاعر ويشكّلها على ورقة بيضاء تحرّرُنا من أحاسيسنا المضطربة.

قصّتي تبدأ وتنتهي في مدينتي.. في بلدي، ورغم كل ما مررت به يبقى الحب هو الغالب الأكبر في هذه الحكاية..

مدلّلة أبي في كل شيء، دائمًا جواره حين يقرأ أو يتكلم، أو حين يصمت! كان صمته حكاية كأنه يتحدث فيها مع عوالم أخرى، أو في بعض الأحيان أشعر أنه يتواصل مع أناس خيالين لا يُوجَدُون على أرض الواقع، وأعتقد أنني ورثتُ هذا عنه؛ لأنه في كثير من الأحيان أقع في حب أشخاص خيالين لا وجود لهم على

أرض الواقع، أو أنهم قد سبقونا بمئات السنين!

يحدّق طويلًا كأنه يحلّل كل شيء حوله، له طقوسٌ خاصة حينما يمسك الكتاب ويقرأ، لديه أساليب مختلفة عن جميع الناس.. الكتاب بين يديه كأنه روحٌ حية يعاملها بكل لطف وحب، ومنذ تلك اللحظة وقعتُ بحب الكتب مثل أبي، تستهويني الكتب التي ليس لها أية علاقة بالمواد التعليمية التي ندرسها في المدارس والجامعات.

لطالما بحثتُ عن أي شيء يخرجني من واقعي ويضعني في عالم آخر؛ فكانت الكتب هي الوحيدة والأقرب لحل هذه المعضلة، إلى أن تخرجتُ من الجامعة، حينها كان أكثر شخص سعيد بهذا النجاح هو أبي طبعًا، وعائلتي فخورة جدًا بي؛ أول فتاة تنهي دراستها الجامعية من بين فتيات عائلتي من طرَفَي الأم والأب.

وبفخر عُيِّنتُ معيدة في نفس الجامعة التي تخرّجتُ منها.. جامعة بغداد، مع أنني درستُ جامعتي على قسمين؛ أول سنتين في كليتِي في جامعة الموصل، ثم أكملتُ السنتين الأخيرتَيْن في جامعة بغداد في مدينة السلام التي لم تعرِف السلام يومًا! أذكر حينها الْتَقَيْتُ بالعميد وهو يهنئني على منصبي الجديد، ويُرِيني غرفتي واسمي الذي كان منقوشًا على باب الغرفة.

(أحلام منصور يوسف)

هذا الاسم الذي يعني الكثير لي؛ فلقد سُمِّيتُ تيمّنًا بالروائية والكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي؛ فوالدي قارئٌ لها، وأنا من بعده، كان يراها كنفسه

فيها عشق الوطن والحب.... عشق الأرض والشعب.. عشق الأرض التي لا يستطيع أحد أن ينتزعها من داخله، أحب والدي مطالعه الكتب وأي شيء تقع يديه عليه.

يقرأ الكتاب مرة ومرتين حتى الحفظ، يقرأ باللغة العربية والإنجليزية، وأحلام إحدى الروائيات المفضّلات له، وحين ولدت سمّاني أحلام؛ فأصبحتُ أحلام الخاصة بابي كم أتمنى أن أكون مثل أحلام.. أغيرُ في وطني شيئًا، ويغير وطني في شيء!

والدي يلتهم الكتب كأنه أسد جائع انقضّ على فريسة دسمة، ثم يرتاح على جنب يهضم ما قد امتلأت به خلاياه العقلية والبصرية من سطور محمّلة بمئات العبرات والدروس، يقضي على الكتاب في بعض الأحيان خلال ساعات، ينطوي على نفسه في مكتبته ويظل يقرأ، وفي أكثر الاحتمالات أنه ينهيه في ثلاثة أيام.

أمي رحمها الله كَم غارت من الكتب كثيرًا! تَعتَبِرُ الرواية هي الأنثى الوحيدة التي من الممكن أن تشغل أبي عن كل العالم؛ لأنه يعيش في عالمه الخاص بين طيّات الأوراق، وبين سطور القصص، وعلى نقاط الحروف.

أنا مثل والدي.. بعد أن بدأت أفهم معنى القراءة والكتابة أحاول أن أقلّده قدر المستطاع، دائمًا أدخل إلى غرفته أجلس كما يفعل، أمسك الكتاب وأول شيء يخطر على بالي أن أشم رائحته! تستهويني رائحة الكتب.. فيها عبقٌ من الماضي

والحاضر، في بدايتي الشعر استهواني والنثر، وبدأت أحفظ للمتنبي والسيّاب ونازك الملائكة، فيما بعد عشقت القباني.

أحفظ تقريبًا كل ما تأتي عيوني على قراءته، أحسّ وكأن نزار يكتب لي، كأنني أحلق وأقفز من قصيدة إلى قصيدة كما تحلّق الفراشة بين الزهور؛ لهذا سلكتُ مسلك الشعراء، وبدأتُ بتنظيم القصائد.

أول قصيدة كتبتها كانت لطيرٍ جناحه مجروح وجدته في حديقة المنزل، طيرٌ صغير اعتَنَيْتُ به حتى عادت إليه قواه وطار بعيدًا عني، أذكر أنني سعدتُ جدًا بتلك القصيدة، كان عمري لا يتجاوز التاسعة، أحب الحيوانات جدًا، كم تمنيتُ أن يكون لديّ مزرعة للحيوانات أهتم بها وأرعاها؛ لذلك أهتمّ كثيرًا بالقطط؛ فكنتُ أربّي قططي في باحة المنزل، وأقدم لها الطعام وأعتني بها مثل أطفالٍ لي.

أحبُّ كلّ شيء يربطني بالطبيعة، أعشق المغامرات، وكان والدي يشجّعني دائمًا، يقول أبي: (لو أن الإنسان يخصص وقته من أجل عمل الخير؛ سينال بالمقابل الحب، ولو اعتنى الإنسان بأخيه الإنسان سيظل ذكرى عمله طوال العمر)؛ لذلك لم أكن أفارق أبي أبدًا، تعلمت منه كل المبادئ الإنسانية؛ فأنا دائمًا بقربه.. نتحدث بشتى المجالات؛ فهو كنهر جارٍ لا ينضب أبدًا.

بالإضافة إلى أبي يوجد القباني.. السيّاب.. المتنبي، من الشعراء الذين كونوا شخصيتي آنذاك.

كنت أميل للقصيدة أكثر في تلك الفترة، وبعد أن كبرتُ قليلًا أحببتُ قراءة الروايات؛ لأنها طويلة تعلّم الصبر؛ فكانت أول رواية قرأتها لأيقونتي الرائعة، وعرّابَة الأدب الروائي (أحلام مستغانمي) -ذاكرة الجسد- تلك الروح النضالية المتمردة.. الحب المستحيل.. العادات والأعراف.. الغربة والحنين للوطن، وأهم شيء التضحية في سبيل كرامة وحريه الشعب.

لما كنت طالبة في المدرسة أعود منها مساءً، أنهي واجباتي بسرعة، آخذ كتابًا كي أقرأ وعلى وجهي ابتسامة غريبة، وكأني أشعر بالحب الذي يتغلغَلُ بين سطوره، أشعر بالكلمات تطير حولي، تأخذني من عالمي؛ لتقودني إلى عالمٍ موازٍ آخر، أتخيّل نفسي بدل بطلة من أبطال الروايات، أتخيلها في (حياة).. تلك الفتاة التي أحبَّت رجلًا يكبرها بضعف عمرها، لم أهتم أنا فلقد أحببت، أحسّ أنني عاشقة لرجل يمتطي الحروف ويحارب النقاط، ويرسم بالألوان أجمل حكايات العشق.. رجل فقدَ من جسده قطعة كي يعيد بلده المقسّم إلى قطعة واحدة.. إنني عاشقة!

لأول مرة في حياتي أعشق رجلًا لا يوجد إلا بالحكايات (خالد بن طوبال)، لا شبيه له إلا في كتب أحلام مستغانمي، لكنني أعيش الحكاية وأعشق المُحَارب فيها، وهكذا ابتدأ حبي للكتابة والقراءة.

أنا وأبي نحلل القصائد ونناقش بعض الكتب، لكن أمي دائمًا تنزعج؛ لأني فتاة لا تهتم بأمور الفتيات، ولكنني أجالس أبي دائمًا، أما أخي الذي هو بعكسي

تمامًا هو أقرب إلى أمي مني؛ فلم أكن مثل الفتيات الباقيات تهتم بالخروج والذهاب للتسوق مع أمهاتهن، لم تَرني أمي اهتممتُ بالموضة مثلًا أو بالميك أب أو بما تهتم به الفتيات في مثل عمري، أحب البقاء في المنزل وبيدي كتاب.

أما اخي فكان مثل الشباب تغريه الخروجات والطلعات... تغريه الفتيات ومغامرات الحب والشباب، كما أن الأوضاع لم تكُن جيدة في بلدي، الوضع بعد الحرب الأخيرة لم تجعل من البلد مكانًا آمنًا، أصبح من الصعب العيش فيه؛ قتل.. خطف.. تهديد.. لا أحد يهتم بالشعب، كل اهتمامهم بما تملأ فيه جيوبهم خيرات البلد، وكأن العراق كالثور الذي شاخ ووقع أرضًا؛ فتجمّعَت حوله الأيادي بالسكاكين تنتظر أن تقطع منه جزءًا لها، بلدي الذي كان يعتبر من أأمن الشعوب وأقواها أصبح من أضعف الشعوب وأكثرها إخافة للعيش فيه؛ فكنتُ دائمًا أهرب من الواقع إلى الكتب، وأدخل في عالم الحكايات والقصص..

أؤسّس عالمًا نظيفًا خاليًا من كل شيء.. أضع قواعدها بنفسي، وأحكم بالعدل بين شعبي كأنني في المدينة الفاضلة التي تكلّم عنها أفلاطون؛ فأعيش حياة حالمة بعيدًا عن الواقع.

والدي أَحَبّ جبران خليل جبران كثيرًا، يصفه بقوله إنه يكتب للروح لا للجسد، كتاباته روحية تخاطب العقل والنفس، كان من الصعب فهمها بذلك العمر، لكنني الآن من أشدّ المعجبين به، وخاصة رواية النبي؛ فهي أروع ما كتب بالإضافة إلى الأجنحة المتكسرة.

كل صباح بالرغم من كل شيء لم نغيّر عاداتنا الصباحية؛ فنحن نستيقظ على صوت فيروز من مذياع أبي القديم، رغم قدمه فهو أعز شيء امتلكه أبي آنذاك، وما كان التطور التكنولوجي والطفرة التي حدثت في صناعة الإلكترونيات والأجهزة الكهربائية أي تأثير على أبي، إنه يفضّل مذياعه الأسود القديم على أي جهاز آخر، نجتمع كلنا حول مائدة الفطور، وكالعادة اخي يقول:

- بابا، إلى متى سوف تسمع بمذياعك هذا إلى الأخبار؟! انظر.. بكلسة زر تستطيع جلب العالم إليك هنا.

يرد والدي:

- يا بني، هذه الهواتف والأجهزة الإلكترونية والاختراعات المتطورة صُنِعَت من أجلكم أنتم.. جيلكم أنتم، أما نحن فجيل الوفاء والحنين إلى الماضي، لن نستطيع التطبّع والتغيّر.

كانت هذه كلمات أبي الذي يعيش الوفاء للماضي.. ذلك الماضي الحافل بالثورات والنضالات.. تاريخ مملوء بالدموع والدماء أكثر من الفرح والابتسامات، عانى بلدي الكثير منذ القدم، لم يتغيّر حاله إلى اليوم، لا زال يضحّي بشبابه.. نسائه.. شيوخه، حتى أطفاله الصغار، وأبي أحد من الملايين التي شهدَت على الأقل ثلاث حروب وحصار اقتصادي، وحربًا أخيرة قلبَت موازين البلد.

رغم كل شيء كانت الناس تحس بالأمان، أما الآن أصبح الناس يخافون من ظلهم، وأنا صغيرة أذكر في يوم ما سمعتُ والدتي تهمس لأبي؛ كي لانسمع ما تقول عشيّة بعد أن تغرب الشمس وينتهي عمل اليوم.. أنه هناك بعض العوائل تُطعِم أولادها مرة في اليوم بسبب قلة الغذاء آنذاك؛ فدخلُ الفردِ كان منخفضًا جدًا، لقد كانت أيامًا صعبة مَرّ بها بلدي في تلك الآونة، كم من العوائل كانت تبيع ما يوجد في منزلها من أثاث أو أدوات المنزل.. أي شيء ممكن أن يباع؛ كي يقدّم رب الأسرة الطعام لأولاده.

أذكر حينما درستُ الابتدائية كنت أتقاسم بعضًا من طعامي مع صديقتي ريتا.. التي هي جارتي بنفس الوقت، لقد كانت ريتا صديقتي الوحيدة؛ لأنها تشاركني نفس الطباع والأفكار؛ لذلك دامَت صداقتنا لأمدٍ بعيد، كنّا مقربّتَين جدًا... تأتي لبيتنا ونجلس سويًا نقرأ في مكتبة المنزل، وهي مثلي تمامًا.. لديها أخ واحد وهو كان صديق أخي طبعًا، هي كانت تقرأ لنزار فقط، تعشقُه كعشقِي له، تلقّبه بأمير الغرام، كما أحبَّت روايات أجاثا كريستي، لكن بالنسبة لي قصص الجريمة والألغاز لا تعجبني؛ فأنا أحب القصص الرومانسية أو التي تحاكي الروح أكثر، أحب الجانب الرومانسي في الإنسان؛ لأن الحب هو الدواء الشافي لكل الأمراض والعِلَل والمشاكل، لو أننا نستطيع أن نحب بعضنا بعضًا لعِشْنا في الأرض بسلام.

وبعد أن أصبح كاظم الساهر يغنّي لنزار أصبحَت هي تملأ رأسي بتلك الأغاني كل يوم، لا أخفيكم سرًا أنا أحب كاظم جدًا، وأسمع له كثيرًا، وأحب قصائد نزار أكثر حينما يغنيها هو؛ فحينما يكتب نزار ليغني كاظم يكتمل الحب الأسطوري للمرأة لحنًا وكلماتٍ يخلدان لنا الحب؛ فيصبح التاريخ والحاضر والمستقبل.

في جامعتي كنت لا أتأخر بالتواجد في أي أمسية شعرية أو ملتقى أدبي، أو حتى مهرجان للقصيدة أو الكتاب، وأحرص دائمًا أن أشارك فيه؛ فأنا لستُ فقط مُدرِّسة للتاريخ؛ فأنا شاعرة أيضًا، وهذا

ما يطلقونه عليّ كل من يعرفني، فكل تلك القصائد التي قرأتُها والساعات التي قضيتها مع أبي أثّرَت فيّ بشكل كبير؛ فصنعَتْ مني شاعرة بدون أي تفكير، أكتب لكل شيء.. لشجرتي التي غرستها يومًا ما في حديقة منزلي.. لدمعة أمي يوم ذرفَتْ حين ودّعَت أخي إلى بلاد المهجر... لأجل بلدي.. من أجل شهيد روَى بدمائه أرض الوطن... أكتب لدجلة والفرات، حتى أنني أكتب للصداقة.. للأخوة.. للحب.. للعشق الالهي الذي أنعم علينا بكل شيء، أكتب وأكتب حتى تنتهي الدفاتر وتنتهي الأقلام، وكانت أمي تظلّ تقول بهمس (لقد قلبَ الأب حال الفتاة فأصبحت مثله!)؛ لأنها كانت تعتقد أنني لن أصبح كالفتيات الأخريات أبدًا.

بعد النصف الأول من العام الدراسي -كالعادة- في جامعتنا نستقبل النصف الثاني بلقاءٍ أدبيّ لمحبي الأدب، نجتمع سويًا لنجدّد نشاطنا الدراسي بقصائد جميلة تبث فينا روح التفاؤل.. بقصصٍ تخلِّد فينا كل المشاعر الإنسانية، نجتمع لنسمع كل أنواع الأدب ونستمتع بها، معًا نبتعد عن عالمنا الخارجي ولو لساعات قليلة عن ذلك العالَم الذي أصبح يخاف التواجد فيه لشدة الوحشية والدموية والعنصرية التي تتغلل في خلايا جسده! إننا نعاند واقعنا بفرحنا.. نعانده بأن نكون أفضل.. نحاول أن نجعل من الألم راحة.. من الحزن بسمة.. من الوجع ابتهاجًا.. من الخوف سلامً.. من الدمار عمارة.

كنت جالسة بجانب إحدى طالباتي التي تحب الأدب وتهتم لكل جديد، غالبًا ما نذهب سويًا، ففي يوم رأتني أخرج من مهرجان شعريّ وتفاجأت بوجودي؛ فشرحتُ لها عن مدى حبي للأدب؛ فأصبحَت تأتي معي في كل مناسبة كلّما سمح لها الوقت، أجلس هناك في الصف الثالث من الكراسي المصفوفة بعناية وتنظيم جميل، أستمع إلى القصائد والحكايات الحزينة منها والمفرحة.. قصائد عن الحبيب.. البعد.. الغربة.. الصديق.. الغدر.. الوطن، وما أجملها من قصائد عن وطن مزّقته الحرب والاحتلال، ثم مزقته الأفكار الجديدة التي أتَت مع الحرب ووصلت إلينا بكل أشكالها العنصرية والهمجية لتفكّك وحدة أبنائها، لعلهم في بعض الأحيان نجحوا بذلك، ثم تجدونهم في بعض الأحيان فشلوا في ذلك! لا زال أبناء بلدي يحاولون أن يثبتوا على ما كانوا عليه قَبلًا، لكن بسبب ما حدث

بدأَت مسمّيات جديدة تخرج.. أفكار تطفو على السطح، وحركات قضَت على نصف العقول والمفكّرِين في هذه الآونة.

هناك أجلس.. يصل صدى في أذني عن اسم كان بعيدًا وقريبًا! كان خيالًا وحقيقة! يقدمه الشاب الذي نظم المهرجان قائلًا:

- يتفضل الأستاذ والشاعر المحترم "خالد الحجاج" لإلقاء قصيدة بعنوان (أحلامي).

هل يعقل هذا؟! هل من الممكن أن يكون كل هذا حقيقة؟! إنه نفسه الذي كان يومًا ما أحد أحلامي البسيطة، وهو يقدّم قصيدة عنوانها أحلامي! كانت إحدى أحلامي فقط هي أن أكتب وهو يقرأ، والآن أنا أسمع له هو شخصيًا، أرفع رأسي قليلًا من خلف الشخص الذي يجلس أمامي؛ كي تتضّح لي الرؤية، إنه أمامي هو فعلًا وليس تشابه أسماء.. هو بشحمه ودمه، بدأ قلبي بالخفقان بسرعة حتى أحسَسْتُ أنّ كل من في القاعة يسمع دقاته، أنظر من جديد إليه لعلّي مخطئة في شيء.. لَمن اسمه نفس الاسم! إنه هو لم يتغيّر كثيرًا؛ بعض الشعيرات البيضاء في لحيته التي أطلقها منذ آخر مرة رأيته فيها قبل سنوات، آه آه.. لم يكن لديه لحية آنذاك.

نفس الأناقة التي طلّ بها علينا في مدرستي القديمة.. نفس المشية والخطوات المتزنة التي تهز الأرض تحت أقدامه، ذلك الصوت الذي يدخل القلب قبل الأذن.. إنه الأستاذ (خالد)، لقد عاد بي سنينًا إلى الوراء.. إلى اللحظة

التي دخل بها إلى فصلنا الدراسي بعد غياب أستاذة اللغة العربية حتى نهاية السنة الدراسة؛ فكان هو البديل عنها...

والحُبُّ إِنْ قَادَتِ الأَجْسَامُ مَوْكِبَهُ
إِلَى الْفِرَاشِ مِنَ اللّذَّاتِ يَنْتَحِرُ
وَالْحُبُّ فِي الرُّوحِ لَا فِي الْجِسْمِ نَعْرِفَهُ
كَالْخَمْرِ لِلْوَحْيِ لَا لِلسُّكْرِ يَنْعَصِرُ.....

(جبران خليل جبران)

ننتظر قدومَه بفارغ الصبر؛ لنتعرّف على الأستاذ البديل، نفكر كيف سيكون.. هل كبيرًا في السن أم صغيرًا؟ وخاصة حين علمنا من مديرة المدرسة أنه أستاذ (رجل)، ويجب علينا أن نعكس صورة جيدة للأستاذ الجديد، دخل ذلك اليوم إلى الفصل الدراسي، كنت أنا حينها في السابعة عشر ربيعًا، ومثل غيري من البنات في ذلك العمر كنت أحلم بفارس مثل خالد بن طوبال، لم أهتم كثيرًا لأمور الزواج ولم أفكر فيها، بل أعجبتني فكرة الحب؛ فأنا لم أعشق سوى خالد في رواية أحلام الثلاثية، ولا زلتُ لم أعشق سواه، لم يغرِنِي أي بطل آخر أن أقَعَ في حبه إلا خالد بن طوبال، رغم أنني أعجبتُ بالكثير من الأبطال في رواياتي التي قرأت، لكن.. لم أحب غير(خالد)، وما أن أطلَّ وهو مرتديًا تلك البدلة الكحلية ورباط العنق وشعره المصفّف والعطر الأخاذ الذي عبّأ المكان.. كانت

هذه هي البصمة التي دخل فيها إلى قلبي أستاذ شاب لمادة هي الحلم الأبدي بالنسبة لي، أستاذ لغة عربية.. لغة العشق والقصائد الغرامية.. لغتي التي كتبَت أجمل القصص وتغنَّى لها أشهر الشعراء.

دخل إلى الفصل.. وضع ما كان يحمل بيده على الطاولة أمامه.. أخذ نفسًا عميقًا، وأول شيء قاله:

- مرحبًا.. أنا الأستاذ خالد.. الأستاذ البديل للأستاذة التي كانت قبلي، لن أبقى طويلًا، فقط حتى تنتهي المرحلة الدراسية هذه، ثم تعود لكم أستاذتكم القديمة.

أجابَ كل الفصل المليء بالفتيات المراهقات الجميلات (أهلًا بكَ يا أستاذ).

كنت أنظر إليه وأفكر أنه خالد.. هل هو فعلًا (خالد بن طوبال) خاصّتي؟! هل القدر جلب لي خالد الذي كنت أنتظره؟! الذي كنت أتمنى أن يصبح شخصية حقيقية وأن ألقاه يومًا ما وليس فقط حينما أغمض عيني لأتخيله من بين سطور الروايات، ثم بدون أي شعور، ومن بين أفكاري المتداخلة التي كانت تتصارع وأنا أحاول أن أوقفها، صدر مني صوتٌ لا إرادي سمعه كل من كان في تلك اللحظة موجودًا..

- هل أنت خالد بن طوبال؟

ضحكَ هو وابتسم وعلى وجهه علامات لم أفهمها ذلك اليوم.

- لا.. لست هو نفسه، لكنني أستطيع أن أصبح هو إن أردتِ!

في تلك اللحظة لا أعرف ماذا دهاني؟! كيف خرج مني هذا الكلام؟!

قرصتني ريتا من خاصرتي، وجلستُ في مكاني ووجنتي تورّدَت من شدة الخجل، لم يفهم أحدٌ مَنْ خالد بن طوبال سوى ريتا؛ لأنها كانت تعرف أنني أحب هذه الشخصية الروائية.

بعد أن انتهى الدرس والكل شكر الأستاذ خالد، تقدم نحوي وهو يقول:

- أعتقد أنكِ قارئة جيدة حتى أنكِ تعرفين خالد بن طوبال وتقرئين لأحلام مستغانمي.

أجبتُه وأنا محمرة خجلًا ولا تكاد عيناي ترتفعان من الأرض، وبعد أن أزحتُ خصلة من شعري كانت قد أفلتَت من ضفيرتي؛ لأرد عليه:

- أحلام هي من أقرب الكاتبات إلى قلبي..

تم تركته وخرجت مسرعة إلى الخارج، بينما هو يلملم أغراضه التي كانت على الطاولة أمامه، كأنه كان يلملم مشاعرًا انكشفَت أمامه منذ اللحظات الأولى، هكذا كنت أفكر.

عدتُ ذلك اليوم ولم أكلم أحدًا، ولم أبدّل حتى ملابسي، دخلتُ إلى مكتبة أبي أخذت كتاب ذاكرة الجسد وقرأته للمرة الرابعة أو الخامسة.. لا أدري! لعلي نسيتُ شيئًا لم أجده عن وصف -أحلام- لشخصيه خالد، هل من الممكن أن

يكون خالد الحجاج كخالد بن طوبال خاصتي؟! وقرأت وقرأت حتى غابت الشمس وأنا غارقه بين الكلمات والحروف.. غارقة في حب لا يعيش الآن على أرضنا وزماننا.. شخصية واقعية لم تعُد تعيش معنا! وحينها اكتشفتُ.. لا.. لا يمكن أن يكون هناك شبه بينهما لحد الآن، خالد خاصتي بطل ثوري.. بطل رومانسي.. رسام بالألوان؛ يرسم التاريخ والحضارة.. يجمع بين الماضي والحاضر... خالد بن طوبال أسطورة لثورة حب وثورة وطن في عالم رواية وواقع وطن حزين.

في الأيام التي تلَت كنتُ أذهب إلى مدرستي محمّلة بكل أسلحة العقل والقلب التي من الممكن أن تحميني من نظرات تسلبني عقلي، ومن صوتٍ أصبح يرنّ في أذني كأنه أحد العقاقير المدمنة التي تجعل الروح تدمنُ صوته وأسلوبه في إلقاء المحاضرة، حتى حركات يديه حينما كان يشرح لنا الدرس، أفكر.. كيف سأقف أمامه اليوم وألقي قصيدة من الشعر العربي وهي غزلية أيضًا؛ فقد كانت هي واجبنا لهذا اليوم ومعها تحليل ومناقشة أيضًا.

ها هو الدرس القادم الذي كان مستقبلًا أصبح حاضرًا، وكل شجاعتي التي كنت أشحنها كي أخفي شوقي لوجوده في فصلي باءَت بالفشل، وما أن دخل إلى الفصل حتى ارتخَتْ أسلحتي وذابت مقاومتي.. من كلمة (كيف حالكم اليوم يا بنات؟)، تلك البسمة الرقيقة على شفتيه تنسيني حتلا اسمي! فما بالكم لو كانَت واجبًا مدرسيًّا! أدير رأسي يمينًا ويسارًا؛ لأرى الفتيات زميلاتي..

هل يحدث لهن ما يحدث لي؟ فلا يوجد حولي فتاة تحمرّ خجلًا حين تراه في كل مرة أراه أنا فيها... لا يحدث أن تهتم إحداهن بمشيته التي أصبحتُ أفرّقها عن بقية الأساتذة، أنظر إلى وجوههن ولا أرى تلك النظرة التي توعز إلى الاشتياق له، وأعيد نظري إلى ريتا التي أراها منشغلة بتحضير الأوراق التي نقشَت عليها تحليلاتها للقصيدة، التي حضّرَتها بمساعدتي طبعًا؛ فكانت هي أفضل مني بالحساب وأنا أفضل منها باللغة العربية، لا أحد يهتم مثلي.. لا زينب ولا دعاء أو غادة، الكل مشغول بترتيب أفكاره استعدادًا للمحاضرة، إلا أنا غارقة في شفاهِهِ التي تقرأ القصيدة، كأنه أخذني إلى عالم ذلك الشاعر الذي كتبها..

أتخيّل نفسي جالسة بجانبه وهو يخطّ كلماته بيديه، وهو يفكر كيف يرتب الكلمات ويوزنها، وأزيح نظري ألتفتُ إلى الأستاذ خالد وأرى ابتسامة ذلك الشاعر وهو يستمع إلى قصيدته التي يتلوها الأستاذ علينا... وكل هذا وخيال خالد بن طوبال لم يبتعد عن مخيلتي بعد أن انتهى من إلقاء الشعر أمامنا ناداني باسمي لأناقش معه قصيدة –أحبيني– لبدر شاكر السياب، فهمتُ منه بنظراته أنه يحاول أن يثبتَ لي شيئًا ما حينما ناداني أنا كَي أناقش أمامه القصيدة.. أراد أن يعرف لو كنتُ كالفتيات الأخريات الذين ستكون إجاباتهم روتينية، القصيدة هذه هي آخر ما كتبَ قبل موته؛ فما كان لي إلا أن أترك أوراقي التي قد حضّرتُها استعدادًا للمناقشة وقلت:

- لقد كان السياب مغرمًا بكل النساء اللاتي قابلَهُن.. عاش حياة فقيرة وقليلة الحظ

والحال والجمال؛ فكل امرأة أحبَّهَا تتركه من أجل سلطة أو مال أو جمال، في رجال كانت لديهم هذه المقومات إلا هو؛ فتبتعد عنه النساء ككُرةٍ تتدحرج من أعلى التل إلى الأسفل، كان السيّاب إنسانًا شفافًا، لكنه لم يستطع أن يعبّر عمّا في داخله؛ لهذا التجأ إلى القلم والورقة، وتبيّن بعدها أنه رائع، ولأنه وُلد في قرية تحكمها العادات والأعراف؛ فمن الصعب له أن يُظْهر هذا الحب الذي يُكنّه لأية فتاة؛ فكان يصبّ كل مشاعره على أوراقه... فترك لنا ميراثًا شعريًا لا يُقدّر بثمن، فمات بعد أن أحَبّ نساءً كثيرات تخلّيْنَ عنه من أجل شيء لم يملكه هو..

نظر لي وكأنه كان يقرأ أفكاري، وكأنه تغلغَلَ إلى أعماقي لمّا رآني أجبته بسخرية وعصبية؛ ففهم أنني غير موافقة على ترك المرأة للرجل الذي يحبها من أجل شيء آخر كالمال والجمال، جلستُ بعد أن أنهيتُ ما قلت دون أن يردّ عليّ بأي شيء سوى نظرة ثاقبة كأنها اعتصرَت قلبي، لقد جعلَنِي أتخبّط في داخلي عن رأيه في إجابتي التي لم يردّ عليها بشيء، فسأل زميلة أخرى ليرى ما لديها؛ لتقول عن واجب اليوم.

مرت الأيام أنا وهذه الحرب.. أحارب أفكاري وأعاند نفسي، أي يوم لا يوجد فيه حصة للغة العربية أرجع وأعاتب عقلي؛ لأنني أحاربه وأعاند أحاسيسًا قد تكون عادية لفتاة تُعجَب بأستاذها؛ لأنه إعجاب مختلف، إنني بدأت أرى فيه فارس أحلامي.. فقط فكرة الحب تؤرقني.

بعد أسابيع مذ وجود الأستاذ خالد في مدرستنا، وخلال الفسحة بين الحصص، نادتني إحدى الفتيات وهي تخبرني أن الأستاذ خالد يريد رؤيتك، وقع قلبي بين يدي.. لِمَ يسال عني؟! ما الممكن أن يكون يريده مني الآن؟! لم أفعل شيئًا.. لم أقترف أي خطأ، لكنني سلّمتُ أمري لله وذهبتُ إليه وأنا بالكاد أجرجرُ قدمي وساقي خلفي، لم أفعل شيئًا خاطئًا، هذا ما كنت أفكر فيه، الخوف هو المسيطر على أعصابي وعلى جميع حواسي.

وصلت إلى غرفة الأساتذة وهو على الكرسي جالسٌ، وأمامه أوراق متناثرة، على يمينه كوب الشاي الساخن التي تترافَع أبخرته وتتلاشى صعودًا، وبين أصابعه سيجار مشتعلة، لابد أنه يدخن، هذا ما جاء في فكري، وقفتُ متجمّدة في مكاني لم أتحرك، ولبثتُ هناك لدقائق، ثم طرقتُ الباب كي يحسّ بوجودي؛ لأنه كان منغمسًا بين أوراقه؛ فالكلمات قد ضاعَت مني حين وجدتُه جالسًا هناك أمامي.

- آه.. أحلام! تعالِي اقترِبِي.
- نعم يا أستاذ؟ لقد طلبتني.
- نعم.. كنتُ أريد أن أستشيرَكِ في شيء.
- أستاذي يستشيرني أنا! أنا طالبتك.. بماذا سأنفعك؟
- من الممكن أن تدلِي عليّ برأيك.
- ما الذي تستعطيه لكَ طالبة لأستاذ لديه شهادة ماجستير في اللغة العربية؟!

نظر إليّ بعينين متسائلتين وهو يعلم أنني مندهشة جدًا من طلبه الغريب، لم أرى أو أسمع من قبل أن أستاذًا يأخذ برأي طالبة لديه، أو أن تساعده في أمر ما، وخاصة كإبداء رأيٍ يخصّ أستاذها.

- هل تفاجأتِ؟
- نعم.. بصراحة لا أعرف بماذا سأفيدُك.
- سأطلب منكِ هذا؛ لأني أعلم يقينًا أنكِ ستفهمين ما أريده!
- ما الذي تريده يا أستاذ؟
- لديّ قصيدة رددتُ فيها على القباني، أريد أن تقرئيها وتعطيني رأيكِ بها؛ لأني أعلمُ مدى توسُّعكِ باللغة وأركانها، وخاصة الشعر.

كانت كلماته تقع على رأسي كالصاعقة، إلى هذا الحد أنا كالكتاب المفتوح أمامه؟! استطاع أن يفهم أنّني جيدة ومحبة للأدب هكذا، ثم أكمل قائلًا:

- هل تقرئين لنزار؟
- طبعًا.. أنا من عشاقه، ومن لا يقرأ لشاعر الحب والغزل!
- إذَن مهمتكِ سهلة، وأعلم أنكِ سوف تقومين بها على أكمل وجه.
- إنني أقرأ كثيرًا وأحب الحفظ، لكنني أحب القراءة أكثر، القارئ يهتم بعمق الكلمات والمشاعر التي بين السطور.
- إذَن تعرفين قصيدة "رسالة حب قصيرة".
- طبعًا!

- تمام.. ستقرئين في هذه الورقة قصيدة كتبتُها أنا أردّ فيها على قصيدته، وأريد رأيك.. وأنا متأكد أنكِ لن تجامليني؛ فأنا أحبّ الصراحة وأمقتُ المجاملة، ولهذا اخترتُكِ بالذات؛ لأن من يقرأ للسيّاب وجبران يستطيع بسهولة فهم نزار.
- حسنٌ إذَن، سأفعل ما بوسعي، لكنني لا أعدكَ بشيء؛ لأنكَ تعلم الامتحانات وأنها نهاية السنة، وأحتاج الكثير من الوقت.
- لا عليكِ.. إذا لم تستطيعي قراءتها؛ فلتكن ذكرى مني لكِ.. لأذكى طالبة عندي.

خرجتُ بعد أن أخذتُ الورقة منه، وشكرته على ثقته بي، عدتُ إلى فصلي وأنا أضمّ الورقة إلى صدري.. أحفظها بعيدًا عن عيني؛ لأني أخاف أن أُغرَمَ بالكلمات وأنسى دراستي؛ فدسستُها في أحد الكتب، ولما عدتُ إلى المنزل لم أفتحها واحتفظتُ بها في أحد كتبي المقربة إلى قلبي، لم أستطِع قراءتها حتى انتهَت السنة الدراسية، أنا أعلم كيف هو أسلوب نزار في كتابة شعره... أدركُ كيف يوصل إحساسه لنا... قصائد ملغومة بكل كلمة غزل ممكن أن تُقَال إذا كانت مهذبة أو فظّة، يستطيع القباني أن يصل إلى دواخل عقلنا.. إلى تلك الخلايا الحسيه والمستقبلات العصبية في أدمغتنا بكلمات سهلة عميقة المعنى، أخاف أن أقرأ هذه الورقة التي كُتِبَت عليها ردًّا على قصيدة نزار؛ لكي لا أقع في حب تلك الكلمات التي اختارها خالد للإجابة فيها على قصيدة

(رسالة حب قصيرة)...

كل هذه الذكريات عادَت بي وأنا أستمع له يلقِي تلك القصيدة التي أطلق عليها (أحلامي)، باللصدفة التي لا تُصدّق، يلقيها الأستاذ خالد الحجاج في لقاء أدبيّ جمعني وهو بعد كل هذه السنين.. أفكر في نفسي.. هل سيتعرّف عليّ؟ أسيتذكّر تلك الطالبة التي لم يسمع منها الجواب على الأمانة التي أمّنَهَا لي؟

انتهى خالد من فقرتِه التي أرجعتني إلى أجمل أيام عمري... إلى سن كان همي الوحيد فيه أن أحصل على درجة عالية تخوّلني دخول كلية الآداب، لكن الحظ لم يحالفني فدخلت كلية التربية قسم التاريخ، وأحببتُه لمّا درستُ التاريخ.. درست الحضارة التي تركها لنا أجدادنا وسرقها منا كل دخيلٍ وطَاءَ أرض الوطن... آه من حضارتنا التي مُلئَت بها متاحف فرنسا وبريطانيا و.. و.. و.. من بلد الغرب؛ فالتاريخ كان القسم الذي جعلني أعشق حضارتي أيضًا بالإضافة إلى لغتي، رغم كل ما حصل لي وما زال يحدث لم أتوقّف أبدًا عن حب ما أفعله؛ فالأدب بالنسبة لي هو غذاء الروح، وأنا أهتمّ بروحي كثيرًا؛ لأنها تجعلني أرى الأشياء ببعدٍ آخر بمنظور آخر؛ دائمًا ما أبحث عن جوهر الأشياء لا مظهرها.

انتهت الجلسة الأدبية، وكالعادة نجتمع ببعضنا البعض بحلقات متفرقة بين خمسة أو ستة أشخاص نتناقش فيما بيننا عن ما أتى فيها وما يحدث حولنا؛ فكل من حولنا هنا مهتمّ بشيء ما، والكل يصِل حديثه إلى أوضاع البلد؛ فأكثرهم عاصر الحرب الأخيرة وما تلتها من أحداث وأوضاع غيّرَتْ من حالٍ إلى حال،

واقفة وبيدِي حقيبتي المملوءة أبحاثًا... كتبًا تاريخية وسياسية... بعض الأوراق والقصاصات.

أقف في حلقة يوجد فيها الطالب والأستاذ نتبادل أطراف الحديث، أنا الحاضرة الغائبة بينهم! ما زالت عيني تبحثُ عنه، وأجده واقفًا وهو يضع إحدى يديه في جيبه، واليد الأخرى ممسكةً بملف يحتوي على بعض الأوراق وهو يستمع إلى المتحدثين من أمامه، يدير وجهه لثانية فتقع عيناه عليّ، وكأنني كنت أرسل له إشارات وذبذبات كونيّة غير مرئيّة أترجّاه فيها أن ينظر باتجاهي؛ لعله يتعرّف عليّ، لم أعد تلك الطالبة ذات الضفائر المنسدلة على كتفيها.. أنا الآن أستاذة جامعية.. مثله تمامًا، لكنني جوهريًا لا أزال كما أنا! أنتظره عامًا بعد عام دون معرفة ما يخبئه لي القدر.. بدون أي أمل، كأنني أنتظر فارسي أن يخرج من حكاية! وأنا أعرف أن هذا مستحيل، ولكن هل هناك شيء مستحيل؟

برزَت على شفتيه ابتسامة.. أحنى رأسه إلى الأمام، وعاد ورفعه لينظر إلي، كأنه يقول لي: "اهدأي.. أنا أعرف من تكونين"، وأنا لا زلتُ أحدّق فيه.

استأذنتُ مِن مَن حولي وتقدّمتُ خطوات باتجاهه، وهو يفعل المثل لي، نتقدّمُ إلى بعض كأن قلوبنا تتراكض نحو بعض، إنني أشعر به.. إحساسي لا يخيّب، أنا أعلم ما يشعر به... نتلاقى وتتلاقى القلوب بعد أن أُنهِكَت أرواحنا متعبِين من الدنيا وما حَلّ فيها وبنا؛ حيث تقابلنا من جديد، ليقول:

- آنسة أحلام.. لقد سررتُ برؤيتكِ هنا فعلًا.

- مرحبًا أستاذ خالد، لم أكُن واثقة أنكَ ستتعرّف عليّ.
- هل أستطيع نسيان أذكى طالبة عندي! لم تتغيرِي كثيرًا على ما يبدو.
- وأنت أيضًا.. قصدي أنت مثلما انت باستثناء اللحية.
- إنه العمر.. يمضي بنا، الشعرات البيضاء توحي لنا بذلك.
- إنها صدفة جميلة، هل بقاؤكَ هنا دائم؟ أم مؤقتًا كما كان؟
- لا.. هذه المرة سأبقى دائمًا؛ فقد تعبتُ من التنقل باستمرار.
- أنا سعيدة حقًا بوجودِك.
- أنا أيضًا... نلتقي قريبًا إذن.
- أراكَ لاحقًا.

مرّ من جانبي وهو محمّلٌ بنفس العطر الذي استنشقتُه أوّل مرة من سنين، أعادني إلى أيام كنت أعدّ فيها الساعات مساءً؛ كي أستيقظ صباحًا وأنا أرتّب نفسي لأراه اليوم في حصة المدرسة، أعادني إلى السنة التي تعرّفتُ على الجانب الآخر من نفسي، لم أعرف أنه موجود فيّ.. أعادني إلى ذلك الوهَجِ الذي أضاء حياتي بكل إحساس تحت ما يسمى الحب أو الغرام أو الهيام، أو أيًّا ما كان يسمى، إن كان عشقًا طفوليًا عابرًا أو جنونَ مراهِقَة متقلبة المزاج، أو فتاة أحبَّت بطل روايتها ووجدته على أرض الواقع ولو كان باسمه فقط.

عدتُ للمنزل بعد يوم جامعي متعب.. المنزل الذي أسكنه أنا ووالدي فقط بعد أن توفّيَت أمي، وقبلها كان أخي قد هاجر إلى السويد، كما نحن أيضًا مهاجرون من نينوي كما يسموننا نازحين في بلادنا، عدتُ إلى المنزل.. أحتاج إلى أمي.. أن أرى وجهها المتبسم.. أن أحدّثها عما يدور في داخلي وحولي، لقد أصبحَت صديقتي الوحيدة بعد أن ابتعدتُ عن ريتا منذ خروجنا من الموصل.

بالرغم من قربي لوالدي لكن كان هناك بعض الأشياء التي أشاطرها مع أمي فقط، أمي خزينة أسراري.. مرآة قلبي.. انعكاس روحي، كنت أخبرُها كل ما أخجل من أن أخبر والدي به، أريد أن أزفّ لها البشرى.. بشرى عثوري على خالد من جديد، وجدتُه اليوم من حيث لا أدري أنه موجود، في المكان الذي كنتُ أبحث عنه من الأساس، ولكني لم أعلم أنني سأجده هناك يومًا ما! احتلتني رغبة بالبكاء وكأني فقدتُ أمي الآن.. أحتاجها أن تلمس شعري كلما أنام في حضنها، أحتاجها أن تؤنبني على فكرة قد تخطر ببالي وأشاركها أفكاري، أريدها أن تضحك على مزحة سمعتُها من زميلتي وأرويها لها، لم تعد أمي موجودة، أخذها المرض منا كما أخذَت بقايا الحرب مستقبلنا.. شبابنا.. وبلدنا الحبيب.

وضعتُ أغراضي في غرفتي.. دخلت إلى غرفة والدي التي كانت ملاصقة لغرفتي، كان يجبس على كرسي هزاز يلبس بجامته الأنيقة وفوقها الروب الحريري، حتى في البيت والدي أنيقٌ، ويهتز على كرسيّه، كنت قد اشتريتُه له بأول راتب أستلمه بعد أن تركنا القديم في بيتنا بالموصل مع كل شيء هناك، ولم نخرج

إلا بحقيبة ملابس واحدة وكتاب النبي لجبران، بقي الكرسي القديم هناك مع عشرات الكتب التي كانت مرصوصة على الرفوف في مكتبة أبي العامرة، وخرجنا ولا نعلم هل نعود أو لا!

- بماذا تفكر يا أبي العزيز؟

طبعت قبلة على جبينه، وهو لا يزال يذهب ويأتي على كرسيّه.

- لا شيء.. حزين فقط.
- ما الذي يجرؤ على إحزانك ويزيد همومك وكأن أثقال الدنيا على كتفيك؟
- لقد سمعتُ اليوم في المقهى عن أحد الأصدقاء في الموصل... تم قتله على يد عناصر القوات الإرهابية؛ لأنهم وجدو لديه هاتف نقال كان يوصل أخبارهم للجيش العراقي.

وضعتُ يدي على فمي أُسكِت صرخة قد تكون صامتة لا تستطيع الخروج للعلن، كأن أحدًا قد ابتلع شفرة حادة لا يقدر أن يبلعها ولا يقدر أن يخرجها! صُعقت بالخبر.. اهتزّ كل إنش في جسدي، بدأ عقلي يعيد الذكريات المؤلمة المريرة التي عشناها قبل دخول العناصر الإرهابية إلى مدينتي الحبيبة (الموصل)، لقد دخلَت العصابات بأشكال وأنواع متفرقة.. في بادئ الأمر كانت على وجبات صغيرة، طالبت في بداية الأمر من المواطنين عن طريق مكبرات الصوت الموجودة في المساجد أن هذه المليشيات آتية من أجل سلام المنطقة، ولكنها كانت آتية متعطشة لدماء أبناء المنطقة، حينما كان أبي يسمع هذا الكلام كان يدقّ الكَفّ

بالكَفّ ويلعن ويشتم، لم يصدقهم للحظة واحدة، لقد كشفهم على حقيقتهم منذ اليوم الأول.. منذ اللحظة التي قتلوا فيها عناصرَ من شرطة المدينة؛ فمن أتى مدّعيًا السلام لمَ يقتُل من يحاول توطيد السلام؟!

لأول مرة أرى والدي بهذه العصبية، وأمي تحاول أن تهدّئه، وأخي لا يعرف ماذا يفعل! العصابات المرتزقة والمجرمون بدأوا بالتحكم بحياة الناس تحت لواء ما يسمى (داعش).. حينها فقط أحسَسْتُ بألمٍ يعتصر قلبي، وكأن يدين خفيّتَين تمسكان رقَبتِي وتحاول خنقِي، ضاق نَفَسِي ولم أعُد أشعر بالهواء يدخل صدري، لقد أحسستُ بهذا الشعور من قبل.. يومٌ مشؤومٌ سيخَلَّد بالتاريخ على أنه يوم قادم من الجحيم، دخلت إلى غرفتي صلّيتُ رافعةً يدي إلى الأعلى أناجي بها الله.. سجدتُ له؛ لعله يسمع صلاتي.

كانت بعض العناصر الموالية للعناصر الإرهابية تقوم بمسح كل الشوارع، ويدقون على الأبواب يتفقَّدون ما بداخلها.... يخرجون أهلها من دون أي شيء غير الملابس التي تسترهم، وكان أحدها بيت جارنا أبو ريتا... ذلك اليوم الذي لم نستطع فيه الوقوف بجانبهم؛ لأنهم هددونا بالسلاح على رؤوسنا ومنعوا الخروج من منازلنا، وأمروا أبا ريتا بمغادرة المنزل مع بيت أبي حسن وأبي غالب، ولما حاولوا أن يمتنعوا عن هذا الأمر وُضِعَت رصاصة في رأسهم واحدًا تلو الآخر أمام أفراد عائلاتهم... تصيح وتبكي على ما فقدوه.

كان أبو ريتا ممسكًا بيده أيقونة للسيدة العذراء حين قُتِل، وأبو حسن كان لا

يزال بملابس الصلاة والسجادة في يده، ها هو شهيد آخر وقع على أرض الوطن.. ولوّنَت دماؤهم أرضَه الطاهرة، قتلوا شخصًا قد يعود تاريخ عائلته وانتمائِه لهذه الأرض آلاف السنين، يقطعون الجذور ليستوطنوا هم فيها، وهم أصلًا ليس لهم فيها أي حق، رجل يلتحفه السواد قلبًا وقالبًا.. يقتل بكل سهولة رجلًا حاول أن يعيش بسلام في بلد لا يعرف السلام! ولما حاول أبناؤهم أن يأخذوا جثثهم منعوهم من التقرب إليهم وهددوهم بالقتل أيضًا، فما كان منهم إلا أن يتركوا الجثث وراءهم ويخرجوا من مدينتهم التي عاشوا فيها لسنين طويلة، حتى نحن لم نستطع التقرب منهم، لقد عشنا معهم سنينًا لا تُجمَع ولا تُطرَح، حتى حلّ المساء وغطّى الليل كل شيء في تلك البقعة الموحشة من الأرض؛ فخرج والدي وأخي وانتشلا الجثث من الأرض، ودفنّاهم كل واحد في حديقة بيته.. فحق الميت دفنه.

بعد هذه الحادثة ذهبتُ أنا إلى الشارع.. أخذتُ تلك الأيقونة والسجادة من الأرض واحتفظتُ بها، في اليوم التالي لم يستطع والدي البقاء في نفس المكان الذي تبقى فيه هذه العصابات الإجرامية؛ فكانوا يمنعون أي شخص يريد الخروج، أناس تأخذ من الدين ذريعة لقتل أي شخص، وانتهاك حرمة أي شخص.. تأخذ من الكفر وسيلة لتغطّي على جرائمها ضد الإنسانية، وكان الله يحتاج إلى مدافع يدافع عن حقه؛ لذلك قرّرَ والدي الخروج ليلًا، وفعلًا لم نأخذ معنا سوى حقيبة سفر ومدخرات كانت أمي قد احتفظَت بها، وكتابًا واحدًا.

سافرنا باتجاه بغداد.. إلى بيت عمي؛ لأنه كان يسكن منذ زمن هناك، كيف كان لنا أن نعيش مع أناس قد عيّنَت نفسها خلفًا لله، وهل له خليفة؟! يقتلون مكبِّرِين باسمه.. يغتصبون مكبِّرِين باسمه.. ويستبيحون الحرمات باسم الله والدين.. يجلدون باسم الله.. يحرمون هذا ويحللون هذا، حاشا؛ فالدين بريء منهم، أيّ دين هذا الذي يفتخر بقطع الرؤوس؟! يتراقص على أصوات النحيب والتوسلات والقهر والظلم.. يبارك الموت كأنه ولادة شيطانية جديدة، هؤلاء يسيّرُهم الشيطان، والله سينتقم من أفعالهم.. سوف يحرقهم في جهنم بنار آتون لا تنطفئ.

خرجنا من مدينتنا بعد أن استحلّها الغرباء واستباحوا ما استباحوا.. أحرقوا ما أحرقوا.. هدموا ما هدموا.. استقرَرْنا في بغداد، وكنت وقتها في السنة الثانية في الجامعة، بقينا في بيت عمي لعدة أيام حتى استأجرنا هذا المنزل الذي نعيش فيه الآن، وبعد أيام قليلة سمعنا أن (داعش) استولَت على المدينة بالكامل وهرب الجيش منها، منذ اللحظة التي احتلّ المجرمون الإرهابيون الموصل وأنا نذرتُ أن أصلّي كل يوم سجدة من أجل الموصل ليحميها الله، وأبي يقرأ القرآن الكريم على روح كل من قتلَهُم المجرمون هناك، مدينتي كانت جميلة جدًا، والآن تلتحف بالسواد والدموع والدماء، الخراب من كل مكان يلفّها... سوق لبيع النخاسة بعد أن أسِرُوا الكثير من الفتيات من القرى المجاورة للموصل.. محاكم علنية تحكم بالجلد وقطع الأطراف.. حتى الإعدام بشتى الأشكال البشعة.

غادرت مدينتي ويعتصر قلبي ألمًا لا ينتهي.. أكملتُ دراستي في جامعة بغداد حتى تخرّجتُ منها وعُيِّنتُ فيها، كانت أيامنا روتينية جدًا، حتى جاء أخي طارق وأنا كنتُ في سنتي الأخيرة من الجامعة؛ ليخبرنا أنه يريد أن يهاجر إلى الخارج، وكل المحاولات التي استخدمناها لكي يعود عن قراره باءَت بالفشل، وسافر أخي إلى تركيا ثم اليونان، وعبَرَ المياه بالقوارب التي كانت معظمها يغرق في عرض البحر، لقد كانَ سفرُه محاطًا بالمخاطر والمخاوف.. بكل الحالات إن كانت هجرة برية أو بحرية؛ فإذا أُمسِك في البر سوف يسجن بالسجون التركية، وإذا غرق في البحر فسوف يموت لا محالة، ورغم هذا كله عبر اليونان ثم إلى السويد.

الفراق نار ليس لها حد إلا من اكتوى بنارها... الفراق هو قتل صامت للروح والجرح الذي لا يلتئم، كانت أمي تشعر بكل هذه الأحاسيس وهي بعيده عن طارق، في بادئ الأمر كان يكلمنا دائمًا ثم قلَّت المكالمات، وفي كل مرة كانت أمي تتوسّل إليه أن يعود وتزوّجُه وتفرح به وبرؤية أولاده، لكنه كان يأبى الاستماع لها.

وقلَّت مكالماته؛ فأصبح يكلمنا كل أسبوع ثم كل شهر مرة بحِجّة العمل وليس لديه الوقت الكافي، الحكومة السويدية لم تعطه الإقامة؛ فاضطر أن يتزوج بإحدى السويديات كي يضمن الإقامة هناك؛ فالخبر كان محزنًا جدًا حين سمعَت به أمي؛ فهي لا زالت تريد تزويجه من عراقية.. ابنة حلال كما كانت تقول دائمًا.

وبعدها أصبحَت أخبارُه تأتينا بشحّة؛ فكانت تنقضي الأشهر ولا يتحدث معنا، ومرضَت أمي حزنًا وقهرًا على ابنها، وحينما أحاول أن أكلمه لا يرد عليّ ولا يعاود الاتصال؛ فازدادت حالة أمي سوءًا، وذبل جسدها وشحبَ وجهها وذاب قلبها، وانطفأت مثل الشمعة حزنًا على ولد ضاع في بلاد الغربة، وعلى بلد ضاع من أبنائه.

وماتَت أمي مفتوحة العينين تنتظر أن ترى ابنها الوحيد، ويخيب ظنها، وتدفنُ في أرضٍ دفنَت الكثير قبلها ألمًا وحسرة.. تدفنُ الصغير قبل الكبير، وستدفن الكثير بعدها.

أحضرتُ العشاء لوالدي ثم ناديته ليأتي، فلم يحسّ برغبة للأكل، وكيف يشعر بالجوع بعد أن الْتهَمَ وجبة إخبارية دسمه من التلفاز كلها دموية مفخخّة انتحارية موبوءة بالأمراض النفسية والعقائدية! أخبار جعلتني لا أتابع الأخبار أبدًا؛ كي لا أزيد من طاقتي السلبية، أحاول دائمًا أن أكون أكثر إيجابية؛ فيحق لي أن أعيش حياتي بفرح.. أن يعيش وطني بسلام وأمان.. أن يعيش كل أبنائه بمحبة ووئام، انزويتُ في مكاني المفضل للقراءة، جلبتُ معي من الجامعة كتابًا يتكلم عن الصوفية، يجذبني هذا النوع من الروايات والكتب؛ لأن الصوفية تدلّ الناس على الله وتعرفهم به.... الله الموجود داخل كل البشر.. موجود في قلوبهم، فقط يكفي أن يبحثوا بعمق قليلًا ليجدوه، الله قريب منا جدًا أكثر ممّا تتصورون؛ فهو موجود في كل مكان وأوان.

الله في الصوفية هو الحب، وأنا أبحثُ عن الله من هذا النوع.. الحب لكل شيء وبكل شيء، الحب في صورة زهرة ذات عطر فواح كأغنية بُلبُلٍ يغرّد في الصباح كرقصة تحرّكُ فيك الإحساس بالانسجام مع الكلمة واللحن، الحب في كل شيء.. في صوت طفل صغير.. في أغنيه حب يطرب السمع لها.. إنه العشق الإلهي الذي تكلّمَ عنه (شمس التبريزي) و(جلال الدين الرومي)؛ فأصبح الدين بالنسبة لهم هو العشق بكل حالاته.. أن تتقبل الآخر بكل اختلافاته.. لونه.. دينه.. لغته.. شكله.. بلده.. و.. و.. و.. الاختلاف يجعل نسيج المجتمع متكامل؛ فلا ضرر أن نكون مختلفين عن بعضنا، لقد خلقنا الله هكذا، لو أراد لخلقنا كلنا على نفس الشكلية، أراد فينا الاختلاف لنكمل بعضنا البعض.. ليجد كل منا جوهرَه الخاص المخبأ داخلنا، وأننا حين نتقبل الآخر بكل اختلافاته؛ فسوف نعرف الله، ويكون الله قد عرّفَنا على ذاته، تقبُّل الآخر يعني احترامه، واحترامه يعني حبه، والحب يعني الله؛ لأن الله محبة.

ككُلّ يوم أذهب إلى الجامعة، وأنا في التاكسي الذي يأخذني بشوارع المدينة المزدحمة –وكعادتي– أظل أنظر إلى الخارج من نافذة سيارة الأجرة أرى ما حدث في هذه المدينة في كل هذه السنوات التي تَلَت الحرب الأخيرة.. آثارها عليها.. بنايات قد احترقَت بسبب الانفجارات الشبه يومية... بعض السواتر الكونكريتية، الأبنية التي شُيّدَت من جديد وتغيّرَت ملامحها يومًا بعد يوم.

أصادف بعض الأطفال قد تركوا دراستهم ويبيعون المناديل الورقية والسيديهات، أو بعض المتسولين الذين يوقفون بعض المارة؛ لكي يتوسلون إليهم أن يعطوهم المال كمساعده، تلك المرأة التي تجلس في الشمس الحارقة أو البرد القارص وبيدها طفل تستجدي به عطف المارة، ونحن أغنى بلد يمكن أن يحوي على أكثر احتياطي من النفط في العالم يعيش مواطنوه في حاجة كبيرة! أنظر إلى الشاب العاطل عن العمل بعد أن تخرج من جامعته؛ كي يتعين في وظيفة قد يحقق أقل ما يحلم به.. لكن لا يوجد؛ فيضطر أن يعمل كبائع متجول (العمل ليس عيبًا)، لكن بلده غنيّ ومن الممكن أن يوفر له مكانًا للعمل باختصاصه وشهادته.

تقع عيني على رجل قد يكون في الخمسين من عمره يدفع عربته أمامه، إنه أحد الحمّالين الذين يوصلون بعض الأحمال من مكان إلى آخر بأجرة قد لا تكفي لشخصين، وهو يعول على أقل تقدير خمسة أشخاص، هذا هو حال بلدي الحبيب الذي يُعدّ من أكبر البلدان المُصدِّرَة للنفط، لكن أبناءَه أكثر الناس تعبًا وحاجة.. حزنًا وكسرًا من بين كل البلدان.

يدخلني صاحب سيارة الأجرة من شارع إلى آخر بسبب الازدحام والسيطرات الوهمية أو الحكومية.. نعبر من مكان إلى آخر، فقط كي نتخلص من هذا الخناق المروري الكبير كأننا في عقدة قد تضغط علينا في أية لحظة، ثم نتوقف لسبب ما..

- ما الذي يحدث يا حجي؟! لماذا توقّف السير مجددًا؟!

- لابد أن هناك حادث ما يا ابنتي.
- الستر يا الله.. أتمنى ألّا يكون شيئًا محزنًا أو أصيب أحد بمكروه.
- سوف أخرج لأسال؛ اعذريني لحظة.

خرج الحاج السائق ليستفسر عن الأمر من السائقين الآخرين المتوقفين بنفس الزحام ينتظرون مثلنا، لكنه يبدو أنه سمع خبرًا محزنًا؛ فعلامات وجهه تغيّرَت وهو يضرب الكَفّ بالكَفّ، ويحرك رأسَه يمينًا ويسارًا كأنّه ممتعّضٌ من شيء ما، ثم يمسح جبينه الذي بلّلَه العرق تحت شمس بغداد الحارقة، ثم يرفع يديه إلى السماء كأنه يحمد الله على أمر ما أو يعاتبه على أمر ما!

يعود إلى السيارة...

- خيرًا يا حاج؟ على وجهك علامات الحزن.
- ماذا أخبرك يا ابنتي؟! لقد وقع حادث مأساوي في نهاية الشارع.
- يا الله! هل ذهب ضحية أحد ما؟
- يا ابنتي، يقولون أنهم أطلقوا النار على سيارة تحمل فتيات ذهب ضحيتها ثلاثٌ منهم.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.

جفَّت الدماء في عروقي.. بأي حق يعطِي القاتل نفسَه أن يُنهِي حياة إنسان؟! ماذا من الممكن هذه الفتيات قد فعلوا حتى يلقوا حتفهم هكذا؟! ما هذه البشاعة في العيش؟! كم هو سهل علينا أن نرى الموت والدماء في كل مكان؟

متى سنتخلص من كل هذا الدمار؟ إلى متى سوف نعاني وكأن هذه الناس حشرات تُسحَق تحت الأقدام؟ ما ذنب الأهل ليخرج أولادهم صباحًا ولا يعودون إليهم إلا بالأكفان؟ إلى متى سيسمح الله هذا الشر أن يستعبدنا.. أن يميت فينا كل الإنسانية.. إلى متى يا الله؟!

بعدها بقليل غيّر الحجي مسار طريقه وهو يرى كل السيارات الأخرى تُغيّر طريقها ووجهتها، دخل في شارع آخر ثم آخر، وأوصلني إلى الجامعة.

كنت قد تأخرتُ نصف ساعة عن موعد أول محاضرة، لحسن حظي لم تكن لي محاضرة في الساعة الأولى، دخلتُ إلى القسم وإلى غرفتي.. جلستُ على الكرسي بعد أن وضعتُ حقيبة أوراقي على الطاولة وألقيتُ بنفسي على الكرسي أُلقِي همي! حزني.. يأسي بعد حادثة اليوم، وأضع رأسي خلفي وأسنده على الكرسي المريح في المكتب، أنظرُ إلى السقف لعلِّي أجد الراحة لنفسي وأنسى ما أراه كل يوم من بؤس يحيط بي وبمدينتي الحبيبة، بل بكل بلدي الجميل.

تدخل الدكتورة سعاد وهي زميلتي في الجامعة وبنفس الغرفة التي نتشاركها نحن الاثنتين باستكان شاي (الاستكان هو قدح صغير يستخدمه العراقيون في شرب الشاي، يكون لديه صحن صغير وفيه مكان يحمل منه الاستكان؛ لأنه مصنوع من الزجاج، ويكون ساخنًا عند صبّ الشاي فيه، عادة تُرسَم عليه حلقتان ذهبيتان من الأعلى)، نعم.. نحن العراقيون نشرب الشاي في كل الأوقات ومع جميع الوجبات، حين نكون في الصيف أو الشتاء.. عند الفرح

أو الحزن، الشاي هو المشروب الروحي والراعي الرسمي لكل الفئات العمريّة، من أهم المشروبات الساخنة التي لا نستطيع الاستغناء عنها مثل القهوة في بعض البلدان الأخرى، من الممكن لأنه رخيص وسهل التحضير، كما أن أهم وجبة يُقدّم معها الشاي هي العصرونية العراقية (وهي الوجبة التي تُقدّم بين وجبة الغداء والعشاء، وتقدم فيها بعض المعجنات أو الطعام الخفيف، ويلتم حولها في بعض الأحيان الأقارب والجيران).

تضع الدكتورة سعاد الشاي أمامي على الطاولة، وتضع لها قدحًا أيضًا، وتبدأ كالعادة بالحديث..

- الازدحام! لقد أنهكنا.
- الازدحام كل يوم يا دكتورة.
- صدقًا ما قلتِ.. ماذا بكِ؟! تبدين منزعجة.
- لقد مررنا بحادث بطريقنا إلى الجامعة.
- آهٍ من حوادث الطريق التي لا تنتهي.. منهم لله.
- منهم لله! لا يكفي أنهم دمروا البلد وهجّرُوا العديد من أبنائه فيقتُلُون ما تبقى منهم.. أستغفر الله رب العالمين.
- حسبنا الله ونعم الوكيل.

بعدها بدقائق تذهب كل واحدة منا تكمل اليوم بين المحاضرات والطلبة والامتحانات، بقيتُ طوال اليوم وأنا أفكر بتلك الفتيات.. ذهَبْنَ ضحية غدر! لا يعلم إلا الله كيف حال أهاليهم الآن بعد وصول خبر موتهم، لا أعلم لماذا بقيتُ مهتمة بأمر هذه الحادثة ونحن نصادف يوميًا واحدة أو اثنتين من هذه الحوادث التي لا تنتهي.

أناس لا يخافون الله.. يقتلون باسم الله، أو من أجل تصفية حساب ما.. من أجل الانتقام، أو خلخلة النظام.. الفتنة التي ازدادَت يومًا بعد يوم.. التكفير.. القتل.. فقط من أجل غاية شيطانية في قلوبهم.

بعد آخر محاضرة نزلتُ إلى الكافتيريا التي دائمًا ما أذهب إليها؛ لكي أستجمع بعضًا من أفكاري وأريح أعصابي، وآكل قليلًا لأني لا أحس بالجوع وأنا أعمل، وحينما أنتهي؛ فجسدي يخبرني أنه حان موعد شحنة ببعض الطاقة، الكافيتريا بسيطة بعض الشيء.. جميلة مرتبة، لا يدخلها غير الأساتذة؛ لذلك خُصِّصَت لنا فقط، أمّا بالنسبة للطلاب فقد خُصّصَت لهم إدارة الجامعة كافتيريات متفرقة وكبيرة طبعًا.

كنت أجلس لوحدي، أحب الجلوس وحدي.. قرب النافذة المطلّة على الجهة الأخرى من البناية ذات المساحة الخضراء والأشجار التي تتراقص أوراقها مع هبات ريحٍ خفيفة، كأن الحديقة هاربة من إحدى الحكايات القديمة، في بلدي يوجد الجمال بجوار القبح! يوجد الفرح بجوار الحزن.. توجد الابتسامة بجوار

الدموع والدماء، أناس طيبون.. بنايات جميلة.. حدائق تملؤها الزهور والعطور الجميلة، نحن شعب يحب الحياه بالرغم من الموت الذي لا ينفك منّا، نحن شعب المستحيلات يصنع المزحة من أي شيء حوله، شعبي تحدّى مرحلة الخوف باللا مبالاة، وتحدى مرحلة الألم باللاشعور، أجلس لوحدي فيأتي صبي الكافيتريا وابتسامة جميلة على وجهه الصغير، إنه ذو ستة عشر ربيعًا، لقد ترك المدرسة الصباحية؛ لكي يعيل عائلته، وهو ملتحق بالمدرسة المسائية.

- هل أجلبُ لكِ ما تطلبينه كالعادة يوميًا؟
- نعم (عليّ).. نفس الطلب.
- حاظر يا أستاذة.
- أخبرني أولًا.. كيف حال مدرستِك ودروسِك؟
- الأمور بخير.
- حسنًا.. تعالَ لِي بالمطلوب بسرعة؛ أنا جائعة.
- طيارة! على رأسي.

أحبُّ كلامَه العفوي.. أسلوبه البسيط، أعجَبُ بقوتِه وصبره كطفل بعمره مثابر على الدراسة رغم أنه يعمل طوال النهار تقريبًا، معجبة بقدرته على المقاومة.. لا يستسلم أبدًا، إنه كوطني رغم كل المآسي والويلات والحروب لا يستسلم، يواجه كل شيء بكل ما أوتي لديه من قوة.. بكل ما تبقى لديه من أسلحة.. بكل نخلة شامخة في البصرة.. بكل قطرة من ماء دجلة والفرات.. بكل

أثر من حضارته القديمة في بابل ونينوي... بكل جبل يرتفع في كردستان.. هكذا هو العراق؛ خليط من كل شيء، وحتى بالأنبياء؛ فيوجد (عيسى وموسى.. محمد ويحيى) خليط من الأبيض والأسمر.. (السلام عليكم- جاشلونك- كيف الحال؟- دخيوت- جاوني).... (السلام عليكم بكل لغات الأقلّيات في العراق).

أخرجتُ كرّاستِي أخطّ عليها بعض الجُمَل، كانت مسودتي أملؤها بما يجول في خاطري، تُترجَم على شكلِ شعرٍ أو نثر أو خاطرة صغيرة، ثم أسمع صوت الكرسي الذي أمامي يتحرك؛ لأراه... إنه واقف أمامي يسحب الكرسي ويجلس أمامي بالاتجاه المقابل لي من الطاولة التي أجلس عليها.. بدون حتى أن يأخذ رأيي في الجلوس، هل هو حلم؟! هذا ما أحسّ به الآن، مع معرفتي أنني رأيتُه أمس هنا فعلًا، لكن أيضًا يبدو لي كحلم! أعلم أنني قد أصادفُه فعلًا بعد ذلك اللقاء الأدبي، لكن ليس بهذه السرعة، هل تقصد هذا؟! ربّما!

وضع حقيبة أوراقه على الكرسي الفارغ الموجود على نفس الطاولة، وقال:

- هل تقبلين بخالد بن طوبال يشاركَكِ الطاولة؟

نظرتُ إليه وهو يبتسم، لا زال يذكُرُ خالد بن طوبال، ولا يزال يقرأ أفكاري، أجبته باستعلاء خفيف:

- لم يعد خالد بن طوبال في واقعنا اليوم، ولن يكون أحد مثله.
- لِمَ لا؟! فالعالم مليء بالأبطال، لكن يجب أن ننظر إلى الاتجاه الصحيح، وإلى التعريف الصحيح للبطولة؛ فليس كل من ذهَبَ إلى جبهة القتال بطلًا؛

فالأبطال تقبع على كل الجبهات الحربية منها والسلمية.

- لكني لا أرى الكثير منهم، لا أجدهم إلا في رواياتي.
- لأنكِ تهربين! الواقع يختلف جدًا عن الخيال، لا تهربي إلى رواياتك، انظري إلى واقعك.
- معكَ حق.. أنا أهرب إلى رواياتي؛ لأنني أجد أبطالي في داخل الكلمات؛ لأنهم غير موجودين على أرض الواقع.
- ألم أقل لكِ يجب أن تبحثي في كل مكان وليس فقط في جبهات القتال أو منصّات الثورة؟!

عدّلَ من جلسته، وطلب من صبي الكافتيريا فنجانين من القهوة، وسألني إذا أريد شيئًا؛ فأخبرته أنني طلبتُ بالفعل، أتى الصبي مع الطلب وبدأنا بالحديث، يتكلم بكل أريحية، مع أنه يبدو متوترًا! لا أخفيكُم أنا متوترة أكثر منه، يصمت في بعض الأحيان ويتطلّع إلى عيني فقط، ثم يعاود الكلام مرة أخرى.. أخبرني كيف عاش كل هذه السنين يتنقّل من بلدٍ إلى آخر.. من مدينة إلى أخرى، رأى معظم المحافظات العراقية، كان يُعَلِّم كل سنة في مكان ما، إنه أحد الأساتذة المتنقلين الذين يخدمون في المناطق التي يكون التدريس فيها شحيحًا، تم تعينُه نهائيًا بعد إلحاح من والدته بالاستقرار، هذا ما قاله لي، وأمرٌ في نفسه لم يخبرني عنه! حدّثَنِي عن البصرة مسقط رأسه.. شط العرب والسمك المزكوف على الطريقة البصراوية.. الربيان العراقي.. كنت دائمًا أتمنى زيارة البصرة، كلمني عن

ميسان.. بابل.. الأنبار.. ديالي.. كركوك.. النجف.. و..و..و، أخبرني عن أهلها.. عاداتهم.. تقاليد بعض القرى وأعرافهم.. عن بعض المفردات الخاصة التي يتحدثون بها.. عن كل أكلة تشتهر بها إحدى المحافظات.

أُنصِت بكل انتباه لكل كلمة يقولها، لا أريد له أن يتوقّف، كل حواسّي كانت مرتبطة مع شفتيه وهي تتحرك؛ لتخبرني كل الحكايات، كانت كل جملة تخرج من فمه هي جزء من قصيدة شعر، فتح لي أبوابًا كانت مغلقة.. لم أسافر كثيرًا داخل البلد، كل هذه المعلومات في جلسة واحده! كم لديه إذَن من حكايات! أريد أن أعرفَها كلها.. أريد أن نبقى هنا.. أن يتوقف الزمن فينا وأنا استمع إليه، أحسّ أنني سرَقْتُ من الزمن بضعة ساعات أستمع فيها إلى صوته.. إلى عباراته... كلماته.. إلى حركات يديه وعينيه وهو يشرح لي، كأنه جسّد لي كتابًا من حكايات ألف ليلة وليلة، ولا يوجد على وجهي غير ابتسامه تؤكد رغبتي في سماع المزيد، عاد إلى الخلف وأخذ نفسًا عميقًا..

- لقد أثقلتُ عليكِ بالكلام والوقت سرقنا، وأطَلتُ الجلسة معكِ.
- لا عليكَ، لقد أحببتُ الاستماع إلى كلامك وأنت تصف لي العراق.
- إذَن يجب أن أخبرَكِ بالمزيد.. لديّ الكثير والكثير.
- لِمَ لا؟! فأنا أحب الاستماع.

نظرتُ إلى الساعة وإذ بها كانت قد عبرَت الخامسة، نظرت إلى هاتفي الصامت وجدتُ مكالماتٍ من أبي.. لابد أنه قلق عليّ، ليست أول مرة أتأخر

هكذا، ولكن عادة تكون بسبب الزحام.

اعتذرتُ من خالد؛ فأنا يجب أن أعود الآن، صافحتُ يده ولملمتُ أغراضي ونهضتُ مسرعة، ناداني.. التفتُّ إليه:

- هل لازلتِ محتفظة بردِّي لقصيدة القباني؟
- لا.. بكل أسف بقيَت في منزلي في الموصل مع كل أشيائي الأخرى.
- حسنًا إذَن.. أراكِ قريبًا.

أومأتُ برأسي له واستدرتُ وابتعدتُ عنه، وقلبي لا يزال غير مصدّق أنني كنت جالسة معه بدون تكلّف لعدة ساعات، ليس كطالبة مثل الماضي، بل كأستاذة.. كزميلة، لا أعرف ماذا يخبئُ لي القدر؟! ماذا ستكون عليه قصتنا؟! هذا لو أنه فعلًا توجد قصة، أم أنها فقط أفكار وخيالات من عقلي الباطني، وأحلام يقظة بسبب قراءتي الكثيرة للقصص والروايات والعيش فيها، كأنني أصبحتُ لا أعلم أي شيء عن عالمي الواقعي سوى ما تخبرني به الدكتورة سعاد، أو ما يخبرني به أبي من مشاهدته للأخبار طوال اليوم.

نزلتُ الدرج مسرعة؛ لأنني كنتُ قد تأخّرتُ عن عادتي في الجامعة لحد الآن، استوقفني أحد طلابي ووجهه لا يومئ بالخير أبدًا، كأنه قد سمع خبرًا حزينًا مفجعًا عكّر مزاجه وجعل وجهه محتقنًا بهذا الشكل، كأنه يريد أن يتشاجر حتى مع الهواء الذي يتحرك حوله، أنا أعرفه جيدًا.. إنه لا يكون هكذا عادة، إنه من الطلاب المرحين والذين يحبون ممازحة أصدقائهم، وصلت إلى مقربة منه..

أمسكت ذراعه وفي رأسي الكثير من التساؤلات..

- ماذا يحدث معكَ يا عدنان؟ هل هناك شيء خطير؟
- لا أعلم ماذا أقول يا أستاذتي! لكني حزين جدًا.. أحسّ أن الحياة لم يعد فيها عدل.. كأن الله والبشر ينتقمون منا.
- استغفر الله يا عدنان.. ما الذي يدعك تفكر هكذا؟!

أزاح نظره إلى الأسفل، وبقيَت عيناه المليئة بالدموع التي وقعت واحدة منها على الأرض.. هل يبكي الرجال؟ ما الذي حدث لكلام جدتي عن بكاء الرجال؟! حينما أخي كان يبكي كانت جدتي تؤنّبه وهي تقول (الرجال لا يبكون.. الدموع للنساء فقط)، هل جدتي كانت مخطئة؟ وأنا أنظر إلى دموع عدنان التي لا تتوقف.. يبكي بحرقة ولا يستحي ببكائه، كنت قد رأيتُ والدي يبكي مرة واحدة فقط حينما توفيت أمي، وإنما ليس كعدنان أمام الناس، بل في غرفته وحيدًا ينتحيها، كان والدي حينها قد حبَسَ دموعه ثلاثة أيام المخصصة للعزاء، ثم انفجر بعدها وحيدًا في غرفته، استغربت وقتها وفكرتُ بجدتي أيضًا، لو كانت على قيد الحياة كانت ستؤنبه على فعلته!

أتساءل لماذا خلق الله القنوات الدمعية للرجال والنساء إذا كانت الدموع مخصصة للنساء فقط؟! قرأتُ مرة في كتاب أن الدموع هي دماء الروح، فكم هو ألم الروح كبيرًا حتى يبكي الرجال هكذا! وكم تندر دموع الرجال! هدأتُ من روعه قليلًا ورجوته أن يحكي لي ما الذي يُحزِنَه؛ فقصّ عليّ بعد أن هدأ ومسح

دموعه، أخذ نفسًا عميقًا وروى لي بعينين تشتعلان حزنًا:

- أطلقَ الرصاصَ جماعةٌ إرهابية على سيارة كيا.. كانت تأخذ بعض الفتيات إلى العمل كمساعدات في مطبخ لأحد الشركات الأجنبية بسبب حالتهم الاجتماعية والمادية الضعيفة، ولأنهم يعملون في شركة أجنبية أُطلِقَ عليهم الرصاص بحجة أنهم يعملون مع الأجنبي؛ فتوفّيَت على الفور ثلاثة منهم، والباقي أصِبنَ بجروح خطيرة.. إحدى هذه الفتيات هي ابنة خالي.

تزيد خفقات قلبي، وقبضة يدي تشدّ على حقيبتي التي كنت أحملها، ولا أعلم هل أصرخ غاضبةً أو ثائرةً على الحياة؟! أم على القصة التي يرويها لي عدنان! الحادث المشؤوم الذي صادَفَنِي صباحًا وتأخرتُ بسببه إلى الجامعة راح ضحيته ثلاث فتيات كان همهنّ الوحيد هو العيش بأمان وتوفير أبسط الأمور الحياتية لهن ولعوائلهن، كُنّ يعمَلنَ عملًا بسيطًا جدًا، حتى راح أرواحهم فداءً لهذا العمل، كانت دمائهم أرخص من المال الذي تتقاضاه هذه الفتيات عن أعمالهن في مطبخ الشركة؛ فالموت أسهل شيء يقوم به هذا الإرهابي الحقير، أطلقوا عليهم الحكم ونفّذُوه ولم يستمعوا إلى أقوال الضحية، هم القاضي والجلاد! قتلوهم بدمٍ بارد خالٍ من الإنسانية.. بحجة أنهم يعملون لدى المحتل! بأي حكم وشرع قرّر هؤلاء.. فأين الضحية وأين المجرم؟! بأيّ عرف؟ بأي دين يقتل الإنسان فقط؛ لأنه طباخ في شركة أجنبيه؟! (هذا إذا اعتبرنا أن دول الغرب هي العدو)، من أعطى لكم الحق أن تدينوا الناس بلا استماع أو محاكمة؟! فتيات رُحْنَ ضحية

غدر، فقط لأنهم خرجْنَ ليُطعِمنَ أهلهن من مال يجنِيْه بعرق جبينهُنّ وأن لا يمدَنّ يدَهُنّ للغير، لكن القدر والشيطان سلَبَ حياتهُنّ مثلما سلبَ كل شيء منا.. وطننا.. تاريخنا.. حياتنا.. حاضرنا.. مستقبلنا.. كبرياءَنا.. شموخنا.. غرورنا، أصبحنا في بلد القوي يأكل الضعيف، وقانون الغاب هو ما يطبق في حياتنا.

ربَتُّ على كتفه لعلي أخفّف حزنه، أو أخفف حزني عليه! وأخبره بطريقة ما أنني بجانبه إذا احتاج شيئًا مني، وأكملت طريقي أعود بها إلى منزلي عائدةً من الجامعة.

طلبت من سائق التاكسي ليوقفني عند أقرب محلٍ لبيع الخضراوات والفواكه؛ فكان هناك واحد بالقرب من منزلي، أحتاج لبعض المشتريات كي أملأ بها ثلاجتنا؛ لأن والدي لم يعد قادرًا أن يخرج كثيرًا مثل قبل، في بعض الأحيان أذهب للتسوق، أو أتصل بالمحل فيبعث لي الأغراض مع صبيّه، أما اليوم فأحتاج لأشياء مستعجلة.. أذهب أنا وأشتريها، أعطيتُ السائق أجرته.. نزلتُ من السيارة.. توقّفتُ عند بائع الخضراوات وأخذت بانتقاء أفضل ما يوجد عنده في المحل.. وضعتها على الميزان ثم في أكياس.. أعطيته ما أدين لي بثمنها، ثم خرجتُ.

لم أمشِ بضعة خطوات أوقفتني الحاجة (سعدية) وهي تحتضنني وتقبلني كما كانت تفعل جدتي تمامًا.. الحاجة سعدية امرأة كبيرة في السن لطيفة، يحبها الناس في محلّتنا، وتعرفُ كل شيء عن كل شخص تقريبًا، هي امرأة غير متعلمة،

لكنها كانت تمتلك خبرة الحياة.. إنسانة تساعد الجميع وتطل على الجميع.. تشرب قهوتها كل يوم في بيت مختلف من بيوت الحي، الكل يحب تواجده بجانبها.. لطيفة مثل أمهات أيام زمان، والدتي رحمها الله كانت تحبها جدًا وتعتبرها مثل أمها، كانت تقرأ الفال لأمي بعد أن تنتهي من شرب قهوتها، والآن أحب أن أجلس وأشرب معها القهوة.. أقلبُ فنجاني فتقرأ لي من باب التسلية طبعًا، تحب أن تقرأ ما يوجد من رسومات وأشكال كوّنَتْها القهوة المقلوبة في فنجان رأسًا على عقب تترجمها على شكل تصورات وتنبؤات مستقبلية قد تصيب بعضها وقد تخيب...

حينما نادتني في الشارع وأنا اتجه للمنزل كانت تعاتبني لأنها لم ترآني منذ زمن، فقلت لها أن تأتي معي لنجلس معاً قليلاً، فوالدي مثل هذا الوقت لا يكون موجوداً، يأتي عمي لأخذه والذهاب به إلى المقهى، يجلس مع بعض الرجال المقربين له، يلعب الدومنة ويقرأ بعض الجرائد، لم ترضى الجلوس في الصالون، فهي من النساء التي تحب الجلوس في المطبخ، مثلما تقول، أن المطبخ هو قلب البيت، والجلوس حول الطاولة أحبَّ شيءٍ إلى قلبها، صببت القهوة، قدمت معها بعض التين، التمر، المشمش، والبقلاوة العراقية، بعض الكرزات المشكلة، كل هذا إحدى العادات العراقية لتكريم الضيف حين تقدم له القهوة، تبادلنا أطراف الحديثِ قليلاً، ثم أخذت فنجاني لترى ما فيه،

– أه، انظري، لديكِ عينٌ حاسدة، وطرقٌ تذهبين فيها إلى أماكنَ مختلفة،

ستلتقين بشخصٍ لم تريه من قبل، ولديكِ الرقم (٧) هذا يعني أنكِ تنتصرين، ثم تأخذ إصبعها وتدخله في الفنجان لتفقس العين، وتتمتم بعض الآيات وتنفخ في وجهي، وهي تقول.

– رحم الله من رباكِ، تلملم عباءتها وهي تهب بالرحيل، وتخرج من البيت وهي تعطيني بعض النصائح التي دائماً كانت تتلوها على أمي، خرجت الحاجة سعدية، بعد دقائق أتى والدي، وأنا لازلت بنفس الملابس التي خرجتُ بها صباحاً.

– هل عدتِ الآن يا ابنتي؟

– لقد طرأ لي عملٌ في نهاية الدوام، وبقيتُ في الجامعة، ثم ذهبتُ إلى محل الخظراوات واشتريت بعض الأشياء التي نحتاجها، وكانت معي الخالة سعدية.

– ليكن الله بعونكِ، في الصباح عملٌ، والمساءُ البيت،

– تعبك راحة يا بابا، ادعي لي فقط.

– ادعى لكِ في كل سجدةٍ، رضي الله عنكِ كما أنا راضي.

قبلتُه من رأسه، ذهب إلى الحمام، اغتسل، ثم دخل إلى غرفته، بيده كتابٌ حتى يحين موعدُ العشاء، والدي يفعلُ أيّ شيءٍ كي يساعدني، في مرةٍ وجدته كان قد غسل الملابس مستخدماً الغسالة الكهربائية، وهو يحبُ كثيراً غسل الصحون، يقول إنها تصفي تفكيره، مع هذا لا أريده أن يعمل، إنه رجلٌ كبير، ولا يوجد غيرنا نحن الاثنين، أحضرت العشاء، ناديت عليه، تكلمنا قليلاً، قصصت عليه

ما حدث صباحاً، تأثر كثيراً، لكن ما باليد حيلة، بعد أن انتهينا، ذهب أبي لمشاهدة التلفاز ومتابعة بعض الأخبار، ليته لا يتابع أصلاً، لا يوجد شيئاً إيجابي، فهيَ كلها أخبارٌ متعبة، تقسم البلد إلى أحزاب، وكلُّ الأخبارِ تتحدثُ عنهم، هذا الحزب يتهم الحزب الأخر بالفساد، وهذا الحزب يسب هذا الأخر، والحزب الفلاني له ميليشيات تؤذي المواطنين، والحزب الأخر يهدد هذا الحزب، بعد أن كان البلد يد واحدة، تقسم على ذاته في شاكلة أحزاب، كنت في مرحلة الإبتدائية، وكان في كتاب اللغة العربية، قصة أغلب جيلي يتذكرها وكل الذين قرأوها يتذكرون، أن لرجلٍ أولادٌ كثير، وكانوا يتشاجرون فيما بينهم، فوقف يوماً في وسطهم بيده حزمةٌ من العصا وأعطاها لكل واحدٍ منهم وهو يقول؛

(حاولوا أن تكسروها) وحاول الولد تلو الأخر ولم يستطيعوا، ثم أخذها وفكها، وأعطى كلَّ واحدٍ عصا واحدة فقط، وقال لهم (الآن جربوا أن تكسروها) فكسرت جميع العصا بيدهم، حينها قال (هذا حالكم، لو بقيتم متحدين لن يستطيع أحد أن يكسركم، ولكن؛ لو تفرقتم، تُكسرون بسهولة) لأن في الإتحاد قوة، وبالتفرقة ضعفٌ، لهذا خُلقت هذه الأحزاب، لكي يفرقوننا فنضعف؛ بالأمس كنا يداً بيدٍ نجابه كل شيء مع بعض، كنا يداً واحدة، ما الذي حدث الآن؛ سأقول لكم ما حدث؛ بلدٌ ممزقٌ تحت راية أحزابٍ كثيرة، تحوي على شعاراتٍ، تجذبُ فئاتٍ محددة، تعادي شعارات حزبٍ يحوي فئاتٍ مختلفة عن الأولى، أصبحت العائلة الواحدة تضم حزبين أو ثلاثة، كلُّ واحدٍ منها ينتمي إلى

حزبٍ مختلف، وفكرٍ مختلف، وكم هي كثيرة، سالت والدي مرة؛ كيف كان العراقُ قديماً، يعني حينما كان هو شاباً أو طفلاً، سكت لبرهة. كأنه يعود بذكرياته إلى سبعينيات القرن الماضي، والدي ليس كبيراً، من مواليد ١٩٦٠؛ كان طفلاً حينها لكنه كان يعرف بعض الأشياء الجميلة في تلك الحقبة.

يقول: كانت سنوات هادئة بالرغم من اندلاع بعض الحروب والثورات على الساحة العربية، لكن ظل العراقُ يداً واحدة. كان يعد من الدول المزدهرة آنذاك، كان مركزاً للعلم.. تتوافد عليه الجماعات للدراسة والسياحة.. العراق يعد من مصاف الدول الكبرى.. كما كان أبي يلقبها بالعصر الذهبي.. كان دائماً وأبداً بلداً يحب الحياة بكل أشكالها.. كانت نسائه تتبعن الموضة، ورجاله دائمي الترحال نحو الغرب واوروبا، يعشقون الفن والسينما. المسارح تمتلئ بالناس ليشاهدون أعمال عبد الحليم وفريد الأطرش وفاتن حمامة. كانت بغداد مدينةٌ جميلة. الناس البسطاء تكفيهم أغنية كانو يسمعونها من المذياع لأم كلثوم، أو أسمهان، يقرأون الجرائد أو حتى يشاهدون على التلفاز بعض البرامج الرياضية والمسلسلات، البرامج الفنية وغيرها، ما أكثر المعارض الفنية التي كانت تقام لجذب المثقفين، والحفلات الموسيقية.. والمهرجانات.. شارع السعدون وأبو نواس والكورنيش، تزدهر بالحياة؛ كلما كان أبي يحكي لي.. كلما كنت أتخيل نفسي أعيش في تلك الآونة.. لدى والدي طريقةٌ في وصف الأشياء والأماكن. وصفٌ يروقه الجمال، صيرت اتمنى لو ولدت في تلك الحقبة، أيضاً كانت جامعاتنا من

الجامعات الأولى في العالم. تتوافد عليها من جميع البلدان العربية للدراسة؛ لكن بعد هذا، بدأ العراق بالتدهور. حربه مع إيران والخليج. ثم الحصار الإقتصادي أوقع خلفه الملايين من الضحايا من كل الأعمار، فقدت فيها النساء رجالها وأولادها، فقد العراق مكانته عالمياً وأصبحت الدول التي كانت تتأخر عنا بأميالٍ، أصبحت تسابقنا بسنين، ومع هذا كنا يداً واحدة؛ لكن الأن.....

يرن هاتفي لينتشلني من الذكريات التي أقع فيها بين الحين والأخر، أخي طارق يطلبني من السويد لم يكلمني منذ شهرين، كنت قد قاطعته لأنه كان السبب بموت أمي قهراً عليه، لكن بسبب إلحاح أبي كنت أكلمه لدقائق، ثم أعطي الهاتف لوالدي.. بعد أن تزوج بسويدية وأخذ الإقامة والجنسية.. أصبح من حقه أن يطالب بالذهاب إليه، وكان بالفعل قد بدأ بالمعاملة، واتصل بالمحامي من أجل الهجرة، هاهي السنة تكتمل منذ أن قدم أوراق المعاملة لوزارة الهجرة ولا يوجد شيءٌ جديد..

في بادئ الأمر؛ عارضت بشدة أن أرحل، أنا أحب بلدي.. أحب الهواء الذي استنشقه.. لا أريد الإبتعاد عن جامعتي؛ إنها أرضي وهويتي.. لكن بعد كل الذي يحصل بدون توقف ولايتغير شي في حياتنا، والأوضاع من سيئ إلى اسوء، قررت أن نرحل متى تنتهي الإجراءات.. أفتح هاتفي لأتصفح الفيس بوك.. لعلي أرى صورة جديدة لأحد المعارف.. طفلٌ يبتسم، خبرٌ مفرح، أغنية جميلة، الفيسبوك المكان الذي أصبح الإنسان فيه بعكس شخصيته تماماً.. ليس الجميع

بالطب،. لكن معظمهم، هذا التطبيق اللطيف يوجد فيه الكثير من المواضيع تحت مسمياتٍ كثيرة. منها التعبير عن الرأى واحترام الأخر، حتى التوعية الدينية والأخلاقية، كان الفيس بوك هو لوحةٌ إعلانية مجانية لأفكار وشعارات نجدها في كل مكان وأوان. اتفاجأ بوجود طلب صداقة لي من (خالد الحجاج)؛ كيف عرف صفحتي مثلاً، أصلاً كنت قد أنشائتها كي أبحثُ فيها عن صديقتي ريتا بعد أن افترقنا أخر مرة في الموصل، فتحت صفحته، إنه هو، صورته، قبلت الصداقة بدون تفكير، وخلال دقائق تأتيني رسالة عبر الماسنجر؛

- أحلام، كيف الحال؟

سقط الهاتف من يدي.. لم تعد يداي تستطيعان حمل هاتف خفيف جداً، لقد كان لتلك الكلمات الثلاثة وقعٌ مغايرٌ على حالتي، كل حواسي مضطربة، أغمضت عيني وفتحتها لعلني اتخيل كل هذا الذي حدث فعلاً، إنه شيءٌ طبيعي أن تأتيني رسالة على الماسنجر من أشخاص يعدون على الأصابع في خانة الأصدقاء، لا اهتم كثيراً بهذه الأمور صراحةً.. لكن، قريبة لي وقتها نصحتني بأن أُسجل فيه حساباً لأنه قد يساعدني على إيجاد بعض الأشخاص الذين ليس لدي أرقام هواتفهم.. وفعلا كنت أبحث وقتها عن ريتا ولم يكن لي أي اتصال معها، ووجدتها فعلاً على الفيس بوك.. وبعد أن تبادلنا أرقام الهواتف، عدت كما كنت لا استخدمه إلا قليلاً جداً، انظر مرة أخرى إلى صندوق الرسائل والرسالة لازالت موجودة مع أخرى أضيفت لها.

- هل أنتِ موجودة؟

بما سأجيبه إنني أفكر ولكن لايوجد سوى الحمد الله على سؤاله.

فتحت لوحة المفاتيح وبدأت بطباعة الجواب على رسالته ومع كل حرفٍ أنفاسي تحترق ولا تهدأ.

-الحمدلله، أستاذ خالد، كيفك أنت؟

- بخير. بخير. ظننت أنكِ لستِ متاحة ولن تجيبي.

- لم أكن موجودة حينما أرسلت لي. آسفه، كنتُ مشغولة.

- أه، اتمنى أن لا أشغلك أكثر، لكن حينما وجدت صفحتك على التطبيق لم انتظار لحظة وأرسلت لكِ طلب الصداقة، لم أكن متاكداً أنكِ تستخدمين الفيس بوك.

- بصراحة لا استخدمها كثيراً، فقط إذا احتجتُ شيئاً ما.

- طيب، أحلام قد أكون أشغلتكِ حقاً، أعتذر.

-لا، لا، إنك لا تشغلني أبداً يا أستاذ خالد، لقد انتهي عملي وسوف أنام قريباً.

- ارجوكِ لا تناديني بأستاذٍ مرةً أخرى. أنتِ تعلمين أننا نعرف بعضنا من قبل، لا نحتاج لهذه المسافات بيننا.

- لكن يا أستاذ خالد، وضعت هذه المسميات للاحترام المتبادل بين الناس.

- هل تعتقدين أني أقلل من احترامي بك إذا ناديتك باسمكِ المطلق

فقط...؟

-حاشا؛ أنا لم أقل أنك تقلل الاحترام، لكن إذا كنت مُصرٌ سأناديك خالد.

-لدي طلبٌ أخر قبل أن ننهي محادثتنا هذه، أريد رقم هاتفك لو سمحتِ، لأني سوف احتاجكِ في الأيام المقبلة.

- ما الذي ستحتاجه مني، يمكنك أن تخبرني به حين تلقاني.

- يا أحلام. الشي الذي سأخبرك به لا استطيع قوله أمامك وأنا واقف أمام عينيكِ انظر إليهما، سامحيني، لايُغريكِ مظهري الرجولي، فأنا كالطفل بدأ بتعلم خطواته الأول مشياً.

- ولكن الأطفال ما أن يتعلموا المشي حتى يبدأوا بالركض، ويصعب الإمساك بهم، إلا إذا جرينا خلفهم.. وهذا ما لا أحبه.

- لكن الطفل لايهرب من أمه، وإنما يهربُ إليها.

وبدون أي كلمةٍ أخرى. لم أجد سوى أنني أكتب رقمي وابعثه في رسالة له كتبت فيها (تصبح على خير).

. وهو رد.. (أراكِ غداً)

أغلقت الهاتف، وأنا بدأت أفهم مالذي ينوي خالد على فعله.، استلقيت على السرير وعدت إلى اليوم الأول الذي دخل فيه خالد إلى فصلنا قبل سنواتٍ كمدرس للغة العربية.؛ انظر إلى سقف الغرفة، أعد الدقائق والساعات، تمنيت لو كنت الشمس.. كنت سأشرق

مبكراً أكثر هذا اليوم، أزيح ثقل الليل ومخاوفه.. أُشرق على كوكب الأرض وعلى بلدي، أبدد سواد الضلمة بضوء النهار، أريد أن تملك الشمس دائماً طوال اليوم، لا أن يحل المساء.. تطول الساعات أكثر. ليتوقف الزمان آنذاك حين التقي به غداً. أعلم أنني سألتقيه بكل الأحوال، فهو يعمل معي بنفس البنية، فقط يفصلنا طابقٌ واحد، لكنني لم أفكر أنه سيكون موعداً مقرراً. لم استطع تمالك نفسي. اتصلت بريتا، أليس هذا ماتفعله الصديقات، تتكلمن عن كل شي.. ولاتضيعن أيّ تفاصيلٍ صغيرة.

– الو، ما هذه المفاجأةُ الجميلة، أين كان القمر غائب كل هذه الفترة؟

– ما أخبارك ياريتا، اشتقت لكِ.

– وأنا أكثر، لم تتصلي منذ فترة.

– مشغولة صدقيني، أنتِ كيف حالك، وأمكِ وأخيكِ؟

– الكل بخير، أنتِ ما هي الأحوال عندك.

– لا جديد، أخبار خطيبك.

– انتظر الأوراق أن تكتمل، ثم يأتي فادي ونتزوج حالما تنتهي.

–الحمد لله، المهم أن تنتهي بسرعة.

– إيه، ما الذي قادك إلي في هذه الساعة..

–هل تذكرين خالد!، أستاذ لغة العربية في الثانوية.

–طبعاً اذكر، فارسك الثوري.. (خالد بن طوبال).. لا تقولي لي أنكِ

رأيتِه..

-نعم، رأيته، إنه يدرس الأن في جامعتي، وسوف نلتقي غداً.

- دقيقة دقيقة، من البداية اشرحي بهدوء، أخبريني التفاصيل المملة.

بدأت أشرح لريتا كل شيء بالتفصيل، وكأن الكلمات كانت كطيرٍ محبوسٍ في حلقي حلق إليها عبر الهاتف.. سردت لها كلَّ الحكاية.

كلَّ مايوجد في عقلي وتخيلاتي، ومن الحكاية التي من الممكن أن تتحقق، هكذا نحن إذا بدأنا الكلام فلا ينتهي. الصداقة شيء جميل ومن يحتفظ بصديق طوال العمر كمن يحتفظ بكنز ثمين....

الفصل الثاني

الحب، تلك الكلمة الصغيرة المؤلفة من حرفين فقط.. لكن أثرها يقلب موازين الإنسان. أو المجتمع. أو حتى العالم بأكمله. الحب. تلك الكيمياء التي تحدث انفجاراً نووياً بين قلبين مختلفين تماماً، حالما تجتمع تلك المشاعر التي قد تصل إلى اللاوعي أيضاً، فيصبح الحب قلق.. عذاب.. لوعةٌ وغرام.. لاتستطيع التخلص منه.. هرمونٌ غريب يفرزه الجسم حتى يثور كالمجنون في عالمنا المجنون.. هرمون الاوكسيتوسين.. هرمون المحبين كما يطلقون عليه بعض العلماء.. لم يعرف لحد الأن ماهو تعريف الحب.. فقد عرفه العلماء أنه أرقُّ شعور ولاشي أرقَّ من المحبة.. لأن الله يصفُ بالمحبة... يأتي الحب بصفاتٍ كثيرة.. فهي ميلُ القلب والنفس إلى قلبٍ ونفسٍ أخرى.. هي الرغبة والشهوة وميلُ الطبع والنفس _(كما عرفها الرازي).. هناك فرقٌ بين الحب والرغبة.. فالحب هو الرغبة الامتناهية.. التي تزداد مع الوقت.. مع وجود من تحب.. إذا كنت عاشقاً.. أما الرغبةُ فهي تملُّك الشيء والأنانية في الحب.. وها أنا أعيش ذلك الحب ذو الرغبة الغير متناهية.. منذ اللحظة التي التقيت فيها خالد.. "أحببته" بدون شروط.. حبٌ يعود إلى سنين وراء.. أحببته بدون تخطيطٍ للمستقبل.. أحببته حبٌ بريءٌ عفيف.. وجدت فيه بطل حكاياتي التي اعشقها منذ صغري.. ذلك الحب الافلاطوني العذري الذي لايريد شيئاً بالمقابل؛ سوى أنني أشبع

حواسي وأفكاري بهذا الشعور الرائع، ذلك الشوق الذي ينهش قلبي منذ افترقنا في نهاية العام الدراسي..وكنت أبعث أشواقي وأحملها كلَّ ليلة مع كلِّ صفحةٍ اقرأها من كتبي.. إني أؤمن بالقدر.. أؤمن أني إذا أردت شيئاً بقوة سوف تمنحه لي الحياة.. لأني أحب بصدق.. مغرمةٌ بإلتزام.. فالذي يلتزم بالحب يحصل على مقصده.. بين كل شوقٍ وشوقٍ.. احساسٌ.. أوله الأرض.. وأخره السماء.. بين كل حنينٍ وحنينٍ.. مسافةٌ مرهفةٌ تسمى الانتظار.. اشتقت لحديثي معك.. الذي كان لا ينتهي.. ثم وداع بدايته لقاء.. وصباحٌ بدايته معك.. هكذا كان يبدو لي الشوق والاشتياق.. ها إن الحياة قد دارت لتوقعني بنفس الدوامة العشقية.. وتوقفني بنصف الطريق الذي لم أكمله في المرة الماضية.. أما حبي الخالد؛ لخالد، فأنا مؤمنةٌ أن الحب الذي ينتهي ليس حباً، والحب لا يقتل العشاق فقط، بل يجعلهم معلقين بين الحياة والموت، قد قرأتُ كتاب قواعد العشق الأربعون منذ مدة غير بعيدة، يتكلمُ فيها عن الحب، وكانت إحدى قواعد شمس التبريزي هي(أن السعي وراء الحب يغيرنا، فما من أحدٍ سعى وراء الحب إلا وينجح، حينها نتغير في الداخل والخارج).

إذاً أنا كنت أسْعى وراء حبي في مخيلتي، مخيلتي، ها هي الدنيا قدمته إليَّ بعد فراق سنين، أنا لم أكن متيقنةً أنني سأجده يوماً، لكنني لم استسلم أبداً، فالدنيا دوارة، والأحياءُ لابد أن يلتقوا، استيقظت قبل ساعة عن موعدي ككلِّ يوم، كنت أغني أغاني فيروز. كالعادة الصباحية لا تخلو صباحاتنا من فيروز، وها أنا

أسمع لها يامرسال المراسيل، طير بغداد، بغدادُ والشعراءِ والصور، ذهبَ الزمان وضوعه العطر بألف ليلةٍ يا مكملة الأعْراس يغسل وجهكِ القمرُ.. طبعاً سأغني لبغداد، وهل أغني لغيرها؟. إنها المدينة التي أعادته إلى مدينتي الجميلة التي احتضنتني لما هربت من المدينة التي ولدت فيها.. بعد أن اغتصبها السواد، ولونها بدماء الأبرياء، بغدادُ التي

مر عليها الكثير ولايزال تكتب قصص الحب والغرام، دار السلام، لازالت دار السلام ، تقاوم الحزن والألم بالحب والشجن، لا تزال هناك قصص حبٍ في كلَّ زاويةٍ وشارع، في المنتزهات والحدائق، الحب ينثر عطره في كلَّ مكانٍ يمر منه، أكملت فطوري، جهزتُ نفسي، أخذتُ التاكسي، ثم انطلق بي، الطريق إلى الجامعة.. إنه يومٌ مليئٌ بالمحاضرات.. كنتُ دائماً استعد له على أكمل وجه.. وهو الحال اليوم أيضاً مع فارق بسيط.. إنني في نهاية اليوم.. سوف انتظر أنا هذه المرة الأستاذ الذي سيطرق باب قلبي ليخبرني بالمزيد.. لقد اشتقت أن أكون طالبةً وأستمع إلى الأستاذ.. فهو يعرف كيف يخاطب قلبي.. بين محاضرةٍ وأخرى.. يمر الوقت بكل سلاسة.. أحب ما أقوم به جداً.. اعشق التدريس.. يجعلني أوصل رسالتي التي دائماً ما أحاول أن أوجهها بإتقان.. لعل أحد الطلبة يصبح مثلي ويكمل الرسالة.. وبهذا نصبح قد أعددنا مجتمع يحث على الحب والاخلاص والعمل به.. يقول "جبران خليل جبران" في كتابه النبي.. حين سألته الحكيمة عن العمل.. قال (هو تحقيقُ جزءٍ من حلم الأرض البعيد) يعني هذا لو أننا

أعددنا البذور(الكلمة) وبذرناها في أرضٍ صالحةً للزراعة (الانسان المتلقي) فسوف يعطي ثمراً طيباً (المجتمع) ويصبح المجتمع أفضل.. ثم الدولة أفضل معها.

يقول "التبريزي" إن المعلم الحقيقي يختلف عن المعلم الغير حقيقي، فهذا الأخير يبحث عن المناصب والكراسي وجني الأموال والوجاهة فقط، فلا يهمه ما يقدمه، أما المعلم الحقيقي، فهو الإنسان الذي يصبح قلبه شفاف مثل البلور، فهذا الذي يزرع كلمته في قلب مريديه قبل عقولهم، يحثهم على أن يكونوا أفضل منه، وأن يقدموا الأفضل، هكذا نبني الشعوب إذا قدرنا المعلم، فيقدر عمله، ويقدم ما لديه لكي ترتقي الشعوب، والشعوب ترتقي بأوطانها، فإن كان الشعب على قدرٍ كبيرٍ من الوعي، فإن الحكام لن يستغلوا الشعب، وسوف يعملوا على تقديم الأفضل، وأن الشعب سيكون المتحكم بالحكام وليس العكس، انهيت يومي وعدت إلى غرفتي جالسةً أرتب ما بقي لي، وأنا انتظره، فسمعت طرقٌ على باب الغرفة، هو واقفٌ أمامي وعليه ابتسامة ذلك الوجه الذي طالما كان يلف أحلامي التي ما انساها، أحلاماً لا أريد الاستيقاظ منها، كأنني أعيش في عالمٍ أخر في أحلامي.

- مساء الخير، هل تأخرت؟

- مساء النور.. لا، لم تتأخر، تفضل أجلس.

- هل أنتِ مشغولة؟

- لا، أبداً، فقط أرتب أوراقي.

- حسناً، إذاً تعالي، سأخذك إلى مكان سوف تحبيه.

- خارج الجامعة.. لم أخرج أبداً من قبل.

- هل تخافين؟. اطمئني، لن اخطفك.. إنه أحد الأماكن التي أذهب إليها باستمرار... صدقيني ستشكرينني عليه.

- لست خائفة، لكني لم أتعود أن أخرج لوحدي مع أحد خارج الجامعة.. هل هو بعيد؟

- لا، أبداً، إنه قريب، لا أعلم هل رأيتيه أم لا؟.. لكنه تحفةٌ معمارية.

- كيف سنذهب.

- لدي سيارة.

- إذاً، سنذهب بسيارتك الآن.

- نعم الآن، هيا لا تضيعي الوقت، فقط ثقي بي.

خرجتُ معه، لم أخرج بحياتي مع رجلٍ غريب لوحدي أبداً، لا أعلم من أين أتتني الجراءة كي أخرج معه، كي أثق به، فقط لا أريد أن يخيب ظني... انطلقنا بالسيارة في زحامات العاصمة التي لا تنتهي، وصلنا إلى المكان، إنها مكتبةٌ كبيرةٌ جداً، لم أتي إلى هنا من قبل، تعود والدي أن يشتري الكتب، أما أنا فاستعيرها من مكتبة الجامعة، أو اشتريها من المكتبات القريبة من الجامعة، أما هذه المكتبة إنها رائعة حقاً، تلونت من الخارج فسيفساء زرقاء وبعض النقوش،

وتخطه بعض العبارت بالخط الكوفي، أما من الداخل فالكثير من اللوحات التي تظهر تاريخ العراق، مثل السومريين، البابليين، الآشورين الآكدين، وحمورابي والثورالمجنح، توجد فيها رفوفٌ مليئةٌ بالكتب، أصبحتُ أمشي بين الرفوف التي تمتلئ بالكتب، وأتلمس جلدها، ثم تستهويني بعضها، أقف عندها وأفتح الكتاب اشتم رائحته، أحب رائحة الكتب والحبر، تذكرني بمكتبة أبي، أخترت بعضا منها، وأخذها خالد كي يشتريها ويدفع ثمنها، بعد أن أصر طبعاً، لايزال الرجل الشرقي يفعل ما يفعله، الرجل الشرقي بالنهاية، أخذني بعدها إلى إحدى الطاولات التي كانت موجودة هناك، إنه مقهى أدبي، بالإضافة إلى المكتبة، كانت تجلس فتاتين تتحاوران حول كتابٍ ما، وشاب بالجهة الأخرى كأنه يعمل على بحث. وأنا وخالد على طاولة أخرى، وطاولات فارغة تنتظر أن تملئ بأشخاصٍ يعشقون القراءة مثلنا، فالكاتب لا يكتب فقط لأنه موهوب، ولكنه يكتب كي يقراء له أخرون، كي يسافر إلى أيّ زاوية من زوايا العالم، وهو لايزال جالساً في مكانه، يلتقي في مخيلته بأناسٍ أخرين، يتعلم منهم ويتعظ، يتعرف على عاداتهم وحضاراتهم، ويعكس هذا في واقعه، في حياته، توجد بالقرب من الطاولات مكان لصنع القهوة، وهو ليس كما تعودنا عليه، تصنع القهوة في هذه المكتبة على الرمل الساخن، يراني خالد اندهش من طريقة عمل القهوة هنا.

فيقول: الرمل هنا مثل الحب، يجب أن يبقى دائماً ساخناً، يشتعل حتى تبقى العلاقه متجددة ومشتعلة دائماً بين الحبيبين، والقهوة هي الأمور التي تحدث بين

العاشقين، قد تكون مؤلمة أو حلوة، أو أو أو فنجان قهوتي اليوم اختلطت فيه الأحاسيس، تارةً يسمو بي لأعانق السماء، وتارةً يأخذني إلى مشارف الجنون، وبين هذا وذاك تتأرجح أيامي، وارتشف قهوتي بمرارها وحلوها، وتسير الأيام نحو مستقبلٍ مجهول (مقتبس) جالسةً هناك أمامه أشاهده يحتسي القهوة التي طلبها، كي ترافقنا الحديث الذي لم يبدأ بعد أو بدأ ثم توقف، فقط عيوننا تتلاقا، وليست أصواتنا، أنفاسنا التي أقسم أننا نستمع إليها، القهوة انتهت ولازلنا صامتين، كأننا حكينا آلاف الحكايا بصمتنا، لكن هذا لاينفع، أريده أن يقول شيء، أريده أن يحكي لي كي أصغى، لقد كان صادقاً حينما أخبرني أنه يفضل التكلم على الهاتف أكثر من أن يتكلم وجهاً لوجه، فخالد الأستاذ يختلف عن خالد الذي أمامي، هذا ما أراه حالياً، فأنا أعرف خالد الأستاذ، ولا أعرف خالد الأخر.

- هل أعجبكِ المكان؟

- وأخيراً قلت شيء، سمعت صوتك بعد صمت، نعم أعجبني شكراً.

- ألا تحبين الصمت، فالصمت أجمل من الكلام.

- لكنني لم أعهدك صامتاً، فأنت محاضر جيد.

- لكنكِ تعرفتِ على خالد الأستاذ، ولم تتعرفي على الإنسان.

- هل يوجد اختلاف؟

- طبعاً!

كنت أريده أن يقول لي أن هناك اختلاف كبير بين المعلم والعاشق.. فبوجه نظري.. المعلم يعلمُ العشق ويعرف به.. أما العاشق فهو ما يعيشه ويتغذى عليه.. ويكبر على ألوانه ويتشرب الحزن والخيبات فيقوى عوده.. ويبقى العاشق يهدي الحبيب الرغبة اللامتناهية.. لأن الحب لايقدم سوى الحب.

- أخبرني ما الفرق بينك وبين الأستاذ خالد؟

- سوف أقول لكِ، لكن عديني بموعدٍ أخر.

- نحن لم ننتهي من هذا بعد، وتريد أخر.

-عديني أولاً وأخبرك.

- لا استطيع أن أعدك، لكني أعدك أن أحاول.

سكت لبرهة كأنه يحاول تجميع الكلام الذي يريد أن يقوله، أو كأنه يسترجع ذاكرته ليسمعني ما حفظ من كلام، طلب فجان قهوة لعلها تعطيه الحافز وتنشط عقله قليلا، القهوة التي بدأتُ أغار منها، كم فنجانٍ قد شرب كي ينطق بضع الكلمات، إنني بدأت أصدق أن القهوة هي الوحيدة التي تقدم روحها لنا في سبيل مزاجنا، أعاد جسده إلى الخلف متكئاً على الكرسي، ثم استرسل قائلاً:

- أسمعيني يا سيدتي الجميلة، الفرق بين الأستاذ خالد وأنا، هو الحب، فأنا رجلٌ تملئُني أحاسيس، قد تكون مشاعر حب يمتلئُ بها القلب، لكنني اختلف، فالحب عندي يشتت العقل لا القلب، يجعلني أكتب عنه، أحكي عنه، أقصُ قصصاً، أكتبُ شعراً، أعيشُ في عالمٍ لا يوجد على خريطة الواقع، لكنه موجودٌ في

الواقع، في داخلي فقط، تشتعل في داخلي تلك المشاعر التي لايعرفها أحدٌ غيري، لذلك قلت لكِ لا استطيع الكلام أمام عينيكِ، فعينيكِ تأخذ الكلام مني، هل سمعتِ كلّ ما قلته لكِ؟ انسيه فإنها نقطة في محيط المشاعر التي تختبى في كلّ جزءٍ بداخلي، فأنا عاشق لم يفصح عن شعوره لمدةٍ طويلة، ولم استطع أن افصح من قبلُ، لأني كنت انتظر وانتظر لعلني أجد حبي المخبئ في قلبي، فمحبوبتي اخبأها في قلبي، وحبي أخبه في عقلي، كي يترجم كل الأحاسيس إلى كلام أقصه على حبيبتي يوماً ما، احنيت رأسي، لا أعلم هل حبيبته هي أنا، أم أنه فقط يحكي لي عن حبيبته، هل يعقل أنه يؤمن بالقدر مثلي، أم أن الصدف وضعتني أمامه، هو لا يبدو أنه متزوج، أو مرتبطٌ، لوجدت خاتماً في يده، لم يكلمني عن أيّ شيءٍ من هذا القبيل، حينما حدثني عن ترحاله في المرة الماضية، يعني لم يقل أنه كان يرتحل مع زوجته مثلاً، حينما كان يدرس اللغة العربية في البلاد، بدأ لي كالطفل الذي لايريد أن يفارق والدته، كان يرغب بالبقاء إلى جانبي، من أجل ذلك أراد مني أن أعده في مقابلة أخرى، كأنه يخاف أن اختفي مرة أخرى كما اختفى هو، أنا أعرف هذا الشعور جيداً، الرجلُ عاشقٌ ويعشقُ بصمت.

- ما الذي تفكرين به؟ لما أنتِ صامتة؟

- أفكر بخالد الإنسان العاشق.

- هل أعجبك؟

- جداً!!، لم أتوقع كل هذا فيك.

- لم تسمعي شيئاً بعد، لكني سأقول حين لا تكونين أمامي، فحين تكونين تختفي كل الحروف، تختار كل منها زاوية لتختبئ فيها، فيبقى الصمت في حضرتك هو الذي لا يختفي، لأنه لا يخافكِ، فيبقى ويتابع عيناكِ، يتابع صمتُكِ، لعل الحروف المختبئة خلف كل خلية فيَ، تُكونُ جملةً لأقولها لكِ، لكن الصمت هو سيد المكان المسيطر، أخذَ حيزاً كبيراً من عقلي وثغري، تختفي الكلمات وتنتهي الجمل وتتناثر الحروف بوجودكِ.

- والآن ماذا سنفعل بهكذا صمت؟

- إذاً لا استطيع أن أقول شيئاً لكِ الأن.. اسمحي لي أن أكلمك الليلة على الهاتف.

-أصبحت تطلب الكثير.. مواعيد خارج الجامعة.. ومكالمات هاتفية.

- هل أزعجكِ؟

- أنت تعلم أنك لاتزعجني.. لكنني أريد أن أعرف لما كل هذا.

- هل حقاً لاتعرفين، أم تريدين أن تتأكدي؟

- أريد أن أتأكد مثلاً.

- سأخبركِ كلَّ شيءٍ الليلة.

-حسناً إذاً، سوف نرى.

عادَ إلى القهوة وإلى الكلام العام كما كان يحدثني عن أهله، لم يخبرني أبداً أنه كون عائلة، فقط ليطمئنني أنه لم يتزوج قط، تكلمت أنا عن والدي قليلاً، فهو ما

تبقى لي في هذه الدنيا، خلف كل امرأةٍ مثقفة ناجحة أبٌ يثق فيها، بقدراتها، بعقلها، أبٌ يثق أنها لن تخجله، إنما العكس، تجعله فخوراً بها، وهي فخورةٌ به، فالأب هو السند الأول لأبنته، لأنها تتعلم الاعتماد على الأب ثم نفسها، ولاتحتاج للاعتماد على الأخرين؛

في تلك المكتبة الأنيقة، بعد فنجانين أو ثلاثة من القهوة، وقصتين أو ثلاثة من القصص التي رواها لي، والكثير من الصمت، نظرت إلى ساعتي، وإذا بها تعبر السادسة، لملمت كتبي كأنني أُلمِلِمُ نفسي من على الطاولة، لأن بعد كلامي الأخير احسست أنه اكتشف عني الكثير من الذي كان مخباءاً طوال تلك السنين في مخيلتي، طلبت منه أن يوصلني، بالرغم أننا عائلة منفتحة ذهنياً إلا أننا محافظون أخلاقياً، لا يزال أبي رجلٌ شرقيٌ غيور رغم كل شيء، لا أريد أن أستغل ثقته بأيَّ شيء، أعود دائماً في الأوقات المحددة، لكن منذ دخل خالد حياتي، أصبحت أوقاتي غير منتظمة، صعدت إلى السيارة، بقينا صامتين، لكنني كنت أقلب الكتاب الذي اشتريته، أو الذي ابتاعه لي خالد مع كتب أخرى، بدأت اقرأ واقرأ حتى كسر الصمت بصوته.

- مالذي تقرئين؟ لو انتظرتي حتى تصلي إلى البيت.

- إنه رائع.. كيف لم اقرأه من قبل؟

- مالذي لم تقرأيه من قبل؟

- البياتي.

- الم تقرأي للبياتي، عارٌ عليكِ؟

- لقد قرأتُ طبعاً، لكني لم اقرأ هذا الكتاب.

- عن ماذا يتكلم؟

- عن البلد، كأنه يتكلم عن الحال الأن.

-ما اسم الديوان؟

- الذي يأتي ولا يأتي، كأنه يخبرنا عن حال البلد الآن، كأنه يصور لنا مايحدث من أشياء في أشعار من الزمن الماضي.

- مالذي يقوله أخبريني؟

- أسمع هذا المقطع..

كلُّ الغزاة مروا من هنا من نيسابور

العربات الفارغة

وسارقوا الأطفال والقبور

وبائعوا الخواتم الالماس

وقارعوا الأجراس

كلُّ الغزاة بصقوا في وجهها المدور

وضاجعوها وهي في المخاض

حياتنا فيها وهي في داخل هذا النفق المسدود

رواية مملة كمثل أحمق أو مجنون

- إنها رائعةٌ حقاً تلك الأبيات، لقد فهمت ما تقصدين، البياتي في شعره يمتزج بين التراث والعالمية، بين الصوفية والاسطورة، لذلك تشعرين أنه يتكلمُ عن المستقبل، تستطيعين تطبيق كلامه وشعره في أيّ زمن. فمثلاً لو قرأت أيّ شعرٍ له من ديوان أخر بعد عشرة سنوات، ترين التشابه بين ماتعيشين وماتقرئين، لأنه يجسد الشعر الخالد، كان البياتي يتسم بالنظرة المستقبلية، كأنه يرى المستقبل، ويترجمه على شكل كلماتٍ تدخل في الشعر الذي ينظمه، ويجعل القارئ يستمتع به ويعيشه فعلاً، شرحٌ مبسط، وكلامه مؤنق، جعلني لا أريد الوصول إلى المنزل، بل البقاء في هذه السيارة المقفلة، ندور في شوارع بغداد، نتكلم في أيّ شيء فقط أن لا نتوقف عن الحديث، أوصلني خالد إلى المكان الذي أردت، نزلت أنا وأكملت طريقي بعد أن أكد على أن لا أنام قبل أن يتصل بي، وصلت للمنزل، كان والدي موجوداً، ليست من عادته أن يتواجد مثل هذا الوقت في المنزل، هل هو مريض ياترئ؟

سمعتُ صوت التلفاز، دخلت للصالة، وجدتُ أبي جالس يشاهد التلفاز، نظرت إليه متسألة.

-بابا هل أنت بخير، ليس من عادتك أن تكون في البيت في مثل هذا الوقت.

- لم أحبب الخروج اليوم، ألا تريدين الجلوس معي.

- بالعكس طبعاً، ما هذا الكلام، لكنني تعودت حينما أعود لا أراك.

-لكنكِ تأخرتِ اليوم ليس من عادتك؟ هل هناك أمرٌ ما؟

- لا، أبداً.

كنتُ وأنا أحاول أن أختلق كذبة، لم أكذب من قبل، لابد أن أحد شروط الحب هو الكذب معه.

- الزحامات دائماً يا أبي، أنت تعرف كيف هي العاصمة الأن في مثل هذا الوقت.
- أعلم، أذهبي بدلي ملابسك وارتاحي قليلاً.
- تمام، سأذهب وأعود لأحضار العشاء.

دخلتُ إلى غرفتي، بدلتُ ملابسي، غسلتُ يدي، دخلت إلى المطبخ، رتبت ما كان مبعثراً رغم أن والدي شخصٌ مرتبٌ جداً. لكنه في النهاية رجل. ليس مثل المرأة. تهتم بأدق التفاصيل، ثم بعد دقائق دخل والدي المطبخ..

- لم أخبركِ، بعد أسبوعٍ سيقام عرس ابنةَ عمك.
- وأخيراً في الموعد، الحمد لله، الف مبروك.
- نعم اتصل بي عمك اليوم وأخبرني، متى سأراكِ أنتِ أيضاً عروس واطمئن عليكِ.
- هل تريد التخلص مني بسهولة هكذا؟
- يا ابنتي أنا رجلٌ كبير.. والصحة على قد الحال.. لا أحد يعرف ماتخبئه الأيام.

- لا تقل كلمة أخرى ارجوك.. الله يعطيك الصحة.. لا تخف، عندما أجد العريس سأخذه من يده وأقدمه لك.

- استعجلي إذاً.

- حسناً. حسناً. انظر ماذا وجدت اليوم في المكتبة التي ذهبت إليها.

لا أعلم لماذا أكذب على والدي، بأمر الشخص الذي أريده زوجاً لي، لم أفكر بالزواج، هل أنا متخوفة من أخباره لأنني فتاة؟ أم لأنني فقط أريد التأكد من مشاعر خالد ثم الإفصاح لوالدي عن كلَّ شيء، انهيت سهرتي هذه الليلة بسرعة، كأنني طفلٌ في ليلة العيد ينتظر هديته صباحاً، حينما يفتح عينيه ليجدها أمامه، لكنني انتظر أنا مساءاً، أفتح الهاتف وأرد عليه، استمع إلى هديتي التي طالما انتظرتها، كلنا ننتظر هدايا من أشخاص قريبين على أنفسنا، وتختلف نوعية الهدايا من شخصٍ إلى أخر، ومن زمنٍ إلى أخر، ومن جيلٍ إلى أخر، أما الأن فالعالم كله ينتظر السلام كهدية، كادت أن تأتينا بدون غلاف، بدون ورقٍ مزركش كي تجعله أجمل، لسنا بحاجة أن نجمل السلام، فهو بحد ذاته أجمل من كل شيء، السلام الذي افتقدناه حالياً في كل شي يمر بحياتنا، لم يعد موجوداً في هذه الأوقات، أصبحنا نخاف على أنفسنا ونحن داخل بيوتنا التي من المفروض أن نشعر بالأمان داخلها، حتى بعد أن نغلق الأقفال ونوصد الأبواب، لم يعد الأمان والسلام أحد أركان العيش الكريم، فلم يعد الأطفال يلعبون بالكرة أمام المنزل في الساحات كما كانو يفعلون سابقاً، لم يعد بإمكان الطلبة الذهاب مشياً

على الأقدام إلى مدارسهم القريبة كما كانو يفعلون قبلاً، اليوم الشباب يخافون أن يوقفهم أحد المارة إذا سألوهم عن هويتهم، يقد يكون الذي يسأل مجرم أو ارهابي يقتل على خلفية المذهب والدين والهوية، لم تعد الفتيات قادرات على الخروج لوحدهن إلى أيّ مكانٍ بدون مرافقٍ لهن، السلام الهدية الوحيدة التي نحتاجها الآن، ولا توجد أيّ جهة تقدمها لنا، لقد قدموا السلاح لنا كي نحمي أنفسنا بواسطته، لقد أصبح السلاح من أكثر السلع مبيعاً، وأكثرها انتشاراً، لا نريد السلاح، نريد السلام لنعيش بأمانٍ مع بعضنا، دخلتُ لغرفتي، أكمل ما بدأت بقرأته للبياتي.. حين رن هاتفي.. اغلقت الكتاب.. أخذت هاتفي.. ضغطت على زر الرد.. وضعت الهاتف على أذني.. صوته يأتيني من الجهة الأخرى يبدو مختلفاً قليلاً.. يبدو جذاباً أكثر، كأنني أرى شفتيه تتحرك أمامي.

- مساء الخير.. كيف الحال.
- مساء النور.. بخير وأنت؟
- الحمد لله.. ماذا تفعلين؟
- اقرأ.
- لقد خمنت هذا.. هل تكملين ماقرأتي.. اعني ديوان البياتي.
- نعم قاربت على الانتهاء منه.
- طبعاً، أنتِ تلتهمينَ الكُتب.
- ما الذي تفعلهُ أنتَ إذاً ،أخبرني.

- كنتُ أعد الدقائقَ كي أعاود الاتصال بكِ.، لأسمع صوتك.

- لقد كنتَ معي قبلَ عدة ساعات، ما الذي تغير؟.

- لقد اشتقتُ لكِ، لا تستغربي، فأنا منذ اللحظة التي رأيتكِ فيها بعد أن قابلتك في الجامعة وأنا اشتاقُ إليكِ.

- لكنكَ لا تعلمُ أيّ شيء عني، منذ اللحظة التي افترقنا فيها حينما كُنت أنا طالبة وأنت مدرس؛ أتذكر؟.

- طبعاً أذكر، في بعض الأحيان كنتُ أغمض عيني فقط لأتذكرك، ولكنني أخاف أن أحلُم بكِ، لعلكِ أصبحتِ في بيت شخصٍ أخر، أو أماً لأولاده، رفيقة عمره، كلما كنت أفكر هكذا أموت قهراً.

- ولما لم تحاول البحث عني؟

- وهل تعتقدين أن لقائنا صدفة؟ إذاً أنتِ مخطئة.

هل فعلاً أُذناي تسمع مايقوله.. هل من المعقول أنه سأل عني.. بحثَ عني.. وكل هذا خطة من خططه.. هل كل تلك الليالي التي كنت أؤمن بها بالصدف.. أصبحت خيالاتي فقط.. هل خطط لكل شي؟.

تابع كلامه وهو يقول..

- حينما كنت في بغداد قبل هذه المرة تعرفت على شابٍ يعمل بمكتب محاماة.. وأصبحنا أصدقاء.. ثم بعد أن علمتُ أنه يحمل نفس لقب عائلتكم أوقعته بالكلام وجررته إليكِ، وتبين أنه ابن عمك، سألت عن أخاكِ كي لا ألفت

الكلام إليكِ كي أعرف أحوالكم، وأخبرني أنه قد سافر وأنتِ ووالدك لازلتما تعيشون هنا ببغداد، ولما أتاني خبر نقلي إلى الجامعة، وافقت وبشدةٍ على الاستقرار أيضاً، بعدها أنتِ تعرفين، وجدتك أمامي، لقد جربت حظي أن أراكِ في ذلك الاجتماع الأدبي، لأني لو أعرفكِ ولو قليلاً، كنت أؤمن أنكِ ستكونينَ هناك، وفعلاً حدثَ ما توقعته. سكتُّ لبرهةٍ وأنا أُفكر، هل هي صدفة؟ أم حقاً هو القدر! أم هي فعلاً خطة منه كانت بسبب القدر.. أعلمُ أني خيالية وأعيش في عالم القصص والروايات، فكُنت أحملُ أشواقي وحبي كل ليلة إلى العالمِ الأخر كي يحملها إليك، لعلي ألقاك، وتحققت أحلامي.

- أحلام هل لازلتِ على الخط، أين شردت؟.

- معك، أنا أسمعُك، أسفة.

- ما رأيكِ بالذي قلته الأن.

- ماذا تريد أن أقول مثلاً؟.

- لا أعلمُ أي شئ، هل تشعُرين بما أشعُر؟.

- ماذا تتوقع من فتاة خرجت للتو مع شخصٍ غريب إلى إحدى المقاهي، وتتحدث بالهاتف معه ليلاً، ولم يحدُث معها هذا من قبل أبداً.

- أفهم من كلامك أنكِ لم تعشقي أبداً؟؟.

- هل سمح لي خالد بن طوبال أن أعشقَ غيرهُ.

- لكنني مُختلف جداً عن خالد بن طوبال خاصتك.

- لا يوجد أيّ اختلافٍ بينكما بنظري.

- طبعاً لابد أن يوجد اختلاف هو ثوري.. بطل. مغامر.. رسام مشهور.. وأنا مجردَ مدرس.

- لكنكما تتشابهان في شيء مهمٍ جداً، كلاكما عاشقٌ متيم.

- من الممكن، وجهةُ نظرٍ صائبة، لكِن لا يوجد أيّ شيء أخر.

- بلا، يوجد، أنت كمدرس قطعت أشواطاً في هذه البطولة تعلم أجيال، أنت ثوري على كلّ الأنظمة والقوانين الفاسدة وخاصة في مجال التعليم، مغامر قطع اشواطاً من الترحال تنشر رسالتك الصادقة، أنت أيضاً رسام، لكنك ترسم بالكلمات أجمل اللوحات الشعرية لتصبح أفضل من صاغ الشعر في عالمي، هذا وقد تصبح بعد عدة أعوام مشهوراً أيضاً.

- أنتِ خيالية حقاً.

- هذه مشكلتي لكن قد أكون على حق.

نعم لم يترك لي خالد بن طوبال مجالاً للعشق.. لكن الحياة كافاتني.

باظهار خالد الحجج أمامي، لا أعلم كيف استطعت قول كلَّ هذا الكلام له.، حتى أنني لم أتوقع أن يخبرني أيَّ شيء مما قاله لي سابقاً.

قبل دقائق.

- إذاً هل سنصبح حبيبين أم ماذا؟.

- في الحقيقة لا أعلم، هل نحن تحت مصطلح حبيبين أم شيء أخر أكبر من

هذا.

- فلنكُن حبيبين الأن، ونفكر بشيء أخر لاحقاً.

- أوافقك الرأى.

ضحكت مثل طفلة صغيرة أخذت جائزة ما على عمل تفانت به.

وها أنا أخذت جائزتي على صبري الذي أتقنته كل هذا الوقت من أجل حبٍ غريب لشخصٍ غريب، لم نتكلم كثيراً على الهاتف.

ارتحنا من الهموم والمشاعر التي كانت معلقة، أخرجناها إلى العلن، لا نحتاجُ أن نشرح أكثر، كلٌّ منا عرِف مايخبئه الأخر في قلبِه، أخذنا كلَّ الأجوبة على كلَّ الأسئلة، لم يبقى سوى أن نتعرف أكثر على بعضنا، فالأيام كفيلةٌ بهذا الموضوع، ما أكثر الأيام والساعات والزمن، كلُّ الوقت لنا، لا يوجد سوى الأيام لتمر من حياتنا من عمرنا كل لحظة تفوت دون أن نستفادَ منها فهي مضيعةٌ للوقت، لذلك كنتُ دائماً أشغل نفسي بالقراءة، كل سطر اقرأه يضيف إلى حياتي ومعرفتي شيئاً جديداً، لقد قرأت الكثير وتعلمتُ الدروس والعبر مما قرأت، لجبران، إحسان عبد القدوس، باولو كويلو، المتنبي، نزار، غادة السمان، لكن أقربهم إلى قلبي هي أحلام، أحلام مستغانمي التي عرفتني على حب حياتي الحقيقي، وبطلي القصصي، يجبُ على كلٍّ منا أن يملئ وقت فراغه بشيء يحبه ويرتاح حين يقوم به، أياً كان، وأياً كانت الظروف، أعلمُ أن الأنسانَ الأن لا يُفكر إلا بلقمة عيشه، وأن يكمل يومه بخير، يعود إلى منزله، يحمل بيده

أحتياجات أسرته، ويحمل أيضاً روحه، لإننا أصبحنا حينما نخرج من منازلنا لا نعرفُ، هل سنعودُ إليه أم لا؟

أنا لستُ سوداوية التفكير، ولا أتكلم فقط بسلبية، لكن هذه هي حقيقة الواقع الذي أعيشُ فيه، أنا واقعية التفكير، كم من الأشخاص خرجوا ولم يعودو بسبب انفجارٍ ما، أم عملية خطفٍ، أن أحد الاعتقالات العشوائية، أو تشابه الأسماء، لقد أصبح المواطن البسيط ليس لهُ حق العيش بكرامة وأمان، لقد جلبت لنا الحربُ الدمار في كلّ شيء، الدمار النفسي والاجتماعي، الدمار في البنيان والمؤسسات الحكومية، المستشفيات، و.. و.. و والقائمة تطول.

الأيام الجميلة تمر بسرعة جداً، كان الوقت فيها يصبح أقصر من أوقات الحزن، أو أوقات الشعور، أو أن العقل البشري يشعر أن وقت الفرح قصيرٌ لأنه يكون في أوج سعادته وتفائله بالحياة، ولا يشعر بشيء أخر حوله، أو أن وقت الحزن والبأسِ والإحباط والفشل يصبح أطول، كان الزمن حينها يخنقك، كأن عقارب الساعة لا تتحرك، بل إننا لا نشعر أن اليوم يتكون من ٢٤ ساعة، بل ١٠٠ كحدٍ أدنى، لأن العقل البشري يكون تحت ضغطٍ هائل من المشاعر الكاتمة الخانقة التي تجلب القهر والألم، ونشعر أن كل شئ حواليك يؤلمك، حتى سعادة الأخرين، لذلك شعرتُ أن الأيام التي قضيتها بوجود خالد تسابق الزمن.، لأنها كانت أياماً مليئةً بالسعادة، لا يمر يوماً إلا ونلتقي في الجامعة، أو المكتبة، أو الأخرى في شارع المتنبي، حتى في أيام العطلة كنت التقي به؛ تقولون كيف؟؟

أقول لكم أكذب، نعم أكذب على والدي وأخرج للقائه بحجة أن لدي لقاءٌ أدبي!.

وتقولون لما تكذبي على والدك؟ أقول: لا أعلم! اعتقد أن لذةَ الحب في أن يخفى على أقرب الناسِ إليكم، لذة الحُب هو أن نتعرض للمخاطر والمغامرات، قد تكون نظرتي للحب وعقليتي مختلفة، فأنا متأثرة بالرواياتِ الرومانسية التي قرأتُها ولازِلتُ أن الحبيبين يخفون دائماً حبهم عن الجميع، وإلى أخره من القصص والأحداثِ التي تُصاحبهم؛ أنا متأكدة من شئ واحدٍ فقط، لو كانت أمي على قيد الحياة لكنت أخبرتها بالتأكيد، كما أن ريتا صديقتي تعرف، وبين الحين والأخر أكلمها وأخبرها قصصاً عنا.

أحببتك، حتى الحب توقف عند عينيك، أحببتك حتى نطقت كل قطرةٍ من دمي بأني أعشقك، أحببتك حتى ذرفت العين دموع الخوفِ إذا فكرتُ في بعدك.. أحببتك حتى نسيتُ كل حياتي وأصبحتَ أنتَ حياتي (مقتبس).

أحتفلنا بعرس أبنة عمي.. كانت في غاية الجمال.. كأنها قطعة من القمر.. تزوجت من عائلة ميسورة الحال.. فهذه هي الشروط المستحبة الآن.. أن يكون العريسُ أو الرجل الذي يتقدم لخطبة الفتاة من ميسوري الحال وغني بعض الشيء.. أو يكون موظفاً بالحكومةِ.. ذات راتبٍ عالي.. لم تعد الشهادة مهمة لو كنت غني.. والأهم من هذا كله لو كنت تنتمي إلى حزبٍ ما له أذرع في السلطة.. أو أحد أعضاء البرلمان.. أو أنك ابن أحد السادة التي تصلهم حصة من النفط

التي هي ملكٌ للشعب ولا يرى الشعبُ منها أيُّ شيء، المخصصات المالية والمكافأت والمبالغ الهائلة التي يحصل عليها البلد.. تقسم على شريحة واحدة فقط.. أما باقي أبناء الشعب فلهم الله، يعيشون بأقل من المستوى.. على مبدأ (أعطنا خبزنا كفافنا اليوم). فكم من العوائل تعيش هكذا.. فإذا تكلمنا يطيل الكلام.. فحدث ولاحرج، لما تزوجت ابنة عمي.. لم يتبقى من بنات العائله سواي أنا؛ كل النساء التي كانو في ذلك العرس يسألونني نفس السؤال، متى نفرح بكِ أنتِ أيضاً يا أحلام؟ وكأنني أهتم أصلاً.. كي لايفوتني القطار، ومن قال لكم أنني انتظر القطار.. فلا يهمني إن فات، أو لا.. المهم أن أختار من سأوقفُ القطار من أجله، لما لا أكون أنا المطار لا المحطة، لم انتظر قطاراً أبداً، منذ اللحظة التي تخرجت فيها من الجامعة، لم أفكر بالزواج أبداً.. بصراحة كانت لدي رغبة بمعرفة ماذا يخبئه القدر لي.. كما أن مسألة السفر إلى أخي.. أخرجت الفكرة نهائياً من رأسي، حتى بعد أن التقيتُ خالد.. لم تطراء على بالي الفكرة.. لم اخطط الزواج من خالد؛ حتى أننا لم نفتح هذا الموضوع أبداً، أعلم أن أمه تريد تزويجه لأنه هو من تبقى لها أعزب بدون زواج، لأنه أخبرني بذلك، لكنه لم يعلق بشيءٍ أخر، ولم يسألني أصلاً، حتى والدي حين أخبرته أنني سأجلب له عريساً يوماً ما، ما كنت أتكلمُ بجديةٍ أبداً، فقط كنت أفكر أنني سأعرفه ربما على خالد، وليس على فكرة الزواج من خالد، ربما كنت جالسةً في غرفتي أصحح بعض الأوراق لطلبتي.

جائني اتصال من ريتا، فرحت حين رأيت اسمها على الهاتف، لعلها تريحني من تعب وضع العلامات على الأوراق لبعض الوقت.

- ريتا كيف الحال ياحبيبتي.

- بخير يا وجه القمر، وأنتِ.

- الحمد لله.. أخبريني أيَّ شيء، أحتاج لسماع أخبارٍ مفرحة.

- خذي إذاً هذا الخبر... سوف أسافر إلى الأردن من أجل معاملة الزواج في السفارة الالمانية.. وسيأتي خطيبي ونتزوج هناك؛ ويجب أن تأتي أنتِ والعم يوسف، أريدكما بجانبي.

- لقد اسعدتني حقا بهذا الأمر، أنا عن نفسي مستعدة وموافقة، فقط أحتاج أن اقنع أبي، والقليل من الضغط سيفي بالأمر.

- إذاً أخبريني بسرعة كي نرتب كلَّ شيء معاً.

- إنها ستكون سفرٌ ممتع، سأذهب إلى الأردن.. وأرى الأثار هناك البتراء.. نهر الأردن.. ووو

- أنتِ لا تفكرين سوى بالأثار.. أقولُ لكِ سوف أتزوج.. تقولين أثار.

- لاتقلقي سأكون معكِ بكل ثانية.. لكن ما أن أزوجك حتى أذهب أنا لأثاري، فالأردن بها أماكن جميلة جداً، لقد تحمست من الآن.

- طبعاً طبعاً، فقط قدمي الفيزا، وسوف أخبركِ متى أسافر بالتأكيد.

أغلقت الهاتف بعد أن تحدثنا بأمورٍ أخرى، ثم ذهبت إلى والدي وأخبرته

عن زواج ريتا ففرح جداً، وأقنعته أن نذهب سوياً إلى الأردن لحضورالزواج، بصراحة كنتُ سعيدةً كثيراً، سنذهب للأردن ونحضر عُرساً، ثم أذهب في مغامرتي هناك، كنا قد ذهبنا أنا وأبي من قبل إلى لبنان والقاهرة، والآن الأردن؛ اعشق الحضارات فهذا تخصصي، والمدن التي ذهبت إليها كلها مليئةٌ بالأثار التي تعيدني إلى زمنٍ مضى ولن يعود، في اليوم الثاني ذهبت إلى مكتب السفريات، قدمت الفيزا، وأخبرني الموظف أنني سأحصل عليها بعد أسبوعين، أخبرت ريتا بذلك، لكن ما كان يشغل بالي هو خالد!، لم أخبره حتى الآن إنني سوف أسافر، وقد أكون سافرت نهاية هذا الشهر أيضاً، انتهيت من كل شيء، ركبت التاكسي منطلقة إلى الجامعة، كان قد رن هاتفي أكثر من مرة، وكل مرة خالد المتصل، لقد تأخرت فعلاً عن أول محاضرة، لابد أنه قلق، بعثت له برسالةٍ اطمائنه وقلت له:

-إنني سأكون قريباً في الجامعة.

كعادته يمر من أمام مكتبي كل صباح ليطمئن على وصولي إلى الجامعة، لذلك عرف أنني تأخرت اليوم، كما أنه يعمل على بحثٍ مشتركٍ بين التاريخ واللغة العربية، لذلك هو دائمُ التواجد في قسمي وبين الأساتذة، خائفةٌ بصراحة من رد فعله، أليس كل الرجال هكذا، هل من المعقول خالد المثقف مثلهم أيضاً، فمن الصعوبة على الحبيب تقبل من حبيبته أن تسافر لمكانٍ بعيدٍ دون موافقته مثلاً، أو على الأقل أن يعلم بالأمر بالأول، لأن الرجال في وطني يحبون التملك، فالحب عندهم تملكٌ أيضاً؛ لايسمح لها بفعل شيء إلا والرجوع إليه أولاً، وبهذا

الأسلوب تعتقد الأنثى أن الرجل يحبها ويخاف عليها، أما الشاب فيعتقد أن الفتاة تحبه وتخاف منه ولا تكسرله كلمة، حينما يفرض الحبيب السيطرة على حبيبته، فهو ينغر وكأنه يستطيع السيطرةَ على العالم أجمع، وهذا ما لا أحبه في العلاقة، فهناك ما يسمى بالاحترام المتبادل، والرأي المتبادل، والنقاش الحر، ليس على الفتاة أن تطبق حرفياً ما يمليه عليها الرجل، هي أيضاً كائنٌ لديها كيانٌ خاص، أنا أؤمن بالتفاهم والثقة، كما أن الحبيبين ليس لهما أمرٌ على الأخر إلا غذا ارتبطاً رسمياً، ومع هذا فالاحترامُ موجود، فلماذا هذا التنازل الغير مشروط من قبل الفتاةُ لحبيبها؟.. هناك حدودٌ للعلاقة لا بأس بها، أما إذا زاد عن حده بغير حق، فهذا يعتبر حبٌ للتملك، أو الأنانية في التعامل، ولن ارضى بمبدأ(حلال علي.. حرام عليك). وصلت إلى الجامعة، كان الوقت تأخر، أصبحت العاشرة تقريباً، ذهبتُ مباشرةً إلى المحاضرة، أرسلت رسالة لخالد أنني وصلت، لكي اطمأنه على وصولي، لم يأتي خالد إلى القسم طوال اليوم، لكنه كان جالساً بالكافيتريا المخصصة للأساتذة، مندس رأسه بين أوراقه، دخلتُ إلى الكافتريا، تقربتُ منه؛

ثم قلت: هل يسمح الأستاذ أن أخذ القليل من وقته. يرفع رأسه، إلي باشتياق كأنه لم يرني منذ زمن، الكتاب الذي كان مفتوحاً أغلقه، لملم أوراقه المبعثرة، سحب الكرسي وهو يقول.

- خذي كل عمري ولاتبتعدي عن عيني أبداً.

- لقد أصبحت أكثر جرأةً مع مرور الوقت.

- معكِ استطيع أن أكون أيَّ شيء .

- تمام، ليكن ماتقول.

- لم تأخرتي اليوم، كنت سأجن من القلقِ عليكِ، ما الأمر.

جلست على الكرسي، وبدأت أشرح له ماحدث، يستمع تارة، ويتكلم تارةً أخرى، حتى أحسست كأنه قد حزن من شيءٍ ما، أو أخذ على خاطره مني، سكت قليلاً، ثم قال بأسلوبٍ خلفه عتاب المحب الغيور.

- لما لم تخبريني من قبل أن تذهبي.. على الأقل اطلعيني على كل شيء.

- لكن ياخالد كان يجب أن أتصرف بسرعة، كما أننا تحدثنا أمس في وقت متأخر، ولم استطع الاتصال بك، وأنت تعلم إجراءات الفيزا تأخذ وقتاً، وريتا تتزوج بعد شهر.

- على الأقل كنت.....

- على الأقل ماذا، هل تريدني أن أعطيك تقريراً ما يا خالد، أنا لا أحب هذه التصرفات، تعلم أنه لا يوجد بيننا أيَّ ارتباط رسمي يحتم علي أخبارك بكلَّ شيء، أو يحتم عليك منعي من فعل ما أريد.

- أهذا ما يراه عقلكِ، أنني أمنعكِ من فعل ما تريدين.. أنا حقاً أسف يا أحلام، عن أذنك.

أخذَ أغراضه وخرج من الكافيتريا، تركني وحدي أفكر بما فعلته، وما قلته كي يغضب هكذا، هل من المعقول من شابٍ مثقف وواعي أن تكون رد فعله

هكذا، مثل باقي الشباب، هل يتخذون من الحب وسيلةً للسيطرة على من يحبون، إنه الرجل الشرقي بلا شك، مهما كان متعلماً ومثقفاً، حتى وإن كان يعيش خارج الوطن العربي، فستكون هذه تصرفاته، وهذا هو تفكيره أينما ذهب، وأيَّ ما يفعل، يومان وخالد لم أره، لم يأتي إلى القسم، لم يكلمني، لم يهاتفني، ويومان وأنا لم أنم، أصبحتُ عصبيةَ المزاج، أتلفتُ حولي لعلي أراه، لكنه كان يتحاشاني فعلاً، لابد أنه يعاقبني على ما فعلته، لكنني لم أفعل شيئاً خاطئاً، هذا رأي وعليه أن يحترمه، لا يستحق رد الفعل هذه، أول مرةٍ نتشاجر فيها، حتى أننا لم نتشاجر، فقط، مشادة كلامية بسيطةٌ جداً، لم أتوقع أنه لن يتفهم، ولما لم يتفهم، إنه واعي ومثقف، في اليوم الثالث، أخذت هاتفي واتصلت به، رن الهاتف وقبل أن أسمع الرنة الرابعة منه، وجدت أن الخط انفتح وصوته من الجهة الأخرى يدخل قلبي قبل أذني....

- أحلام مرحباً.

- أهلاً.. بصراحة لم أتوقع أن ترد عليّ.

- وهل يعقل أن لا أرد.

- إذاً لما أنت غائبٌ، لم أرك الأيام الماضية، ولم تتصل بي أبداً.

- كنت مشغول.

- ولكنك دائماً مشغول، ودائماً تجد الوقت لي.

- لا أبداً.. لكنني فعلاً مشغول جداً.

- هل أنت منزعج مني يا خالد؟

- أحلام هل استطيع أن أراكِ غداً في مكاننا؟

- أين مثلاً مكاننا؟.. هل هو المكتبة؟

- نعم سوف انتظرك غداً عند باب الجامعة ونذهب سوياً.

- حسناً.. أراك غداً.

سوف أره غداً.. لايهم إن كان منزعجاً أو لا.. لم يستطع أن يبقى غاضباً.. لقد طلب مني رؤيته.. الحب شي كهذا يجعلك ترتكب الحماقات.. ويزيد من مستوى الغباء.. فالشخص الذي يشعر بالحب يصبح وكأنه أعمى لا يرى سلبيات الحبيب ولا أخطاءه.. الحب يخفي كل المشاعر الأخرى تحت ظله.. وحين يكون العشق هو المسيطر على كلَّ المشاعر لا يفكر الإنسان بمنطقية.. أنا كنت دائماً أفكر بعقلي قبل قلبي.. ولكنني أصبحت العكس تماماً.. فالحب أعمى بصيرة العقل... في اليوم التالي خالد ينتظرني كما قال لي.. دخلت إلى السيارة.. ومشينا في الطرقات.. ولكسر الصمت الذي بيننا.. أخبرني أن أضع إحدى السيديهات في المسجل.. كانت أغنية من أجمل ما سمعت.. أغنية للعملاق اندريه بوتشيلي مطربي المفضل.. صوته الأوبرالي الضخم... لقد كنت مندهشة.

- هل تسمع لاندريه.. أنت فعلاً رائع؟

- هل تحبينه، لم أكن أعلم، اعتقد أنكِ تسمعين لكاظم الساهر فقط.

- طبعاً كاظم الساهر هو الأقرب إلى قلبي، لكن اندريه عالمي وهذه الأغنية

بالذات.

- وماذا تحبين أيضاً؟

- أحبك أنت أيضاً...

لقد كانت المرة الأولى التي أقول فيها لخالد أنني أحبه، لا أعرف كيف أتتني الشجاعة، لكنني قلتها، ابتسم هو وأدار وجهه إلى الطريق بعدما كان ينظر إلي؛ ثم قلت:

- هل تعرف أنه أصبح ضريراً بسبب مرض وراثي يحدث في عائلته، لكنه لم يستسلم، تخرج من كلية الحقوق، لكنه أختار الفن، وأبدع فيه، لقد سمعه الملايين.

- طبعاً أعلم، إنه إنسانٌ مثابر، لم توقفه إعاقته، ولكنه حارب بقلبه وتفوق.

- أظلمت عيناه فأنير قلبه، يا ليته يشارك كاظم الساهر في عملٍ ما، تخيل فقط لو لحن كاظم أغنية لبوتشيلي، لغيروا وجه الموسيقى إلى الأبد.

استمتعت جداً في الطريق، أغاني بوتشيلي انستنا كلَّ شيء، كلَّ المشاكل والأحزان، وصلنا للمكتبة، طلب فنجانين قهوة وأتكأ على الكرسي وهو ينظر إليّ لا يقول أيَّ كلمة.

- ماذا هناك ياخالد؟ ما المسألة؟

- لا شيء، أليس لدي الحق بالنظر إلى حبيبتي.

-لكن نظراتك تخيفني.

- أنا أخر شخصٍ ممكن أن أخيفك.. أو أن تفكري أنكِ خائفةٌ مني.

- لكن الأيام التي انقضت جعلتني أعيد التفكير بعض الشيء.

- تعيدين التفكير بأي شيء.. بالضبط.

- يعني بعد المشادة الكلامية التي حصلت بيننا في الجامعة.

- أه، تلك، لأنكِ توقعتي أنني سأمنعك من الذهاب إلى أيّ مكان تريدينه، أليس كذلك.

- لم اقصد ذلك حقاً، أنا أسفة.

- لقد قصدتِ، كنتِ تعتقدين أنني مثل اولئك المتملكين الذين ليس لهم الثقة بأحبائهم، على العموم حصل خير.

- هل أفهم من كلامك أنك لست منزعج، لست غاضباً من فكرة السفر، طيب لما تخاصمت معي يومين؟

- أولاً، أنا انزعجت لأنكِ قارنتيني بأشخاصٍ أخرين، يبتعدون كل البعد عن أخلاقي وأسلوبي، لست من يحدد حركة المرأة أو يقيد تحركاتها، أنا أؤمن أنها تستطيع أن تحقق أيَّ هدفٍ تصبو إليه، ولأنها تعرف كيف تحافظ على نفسها دون أيَّ حارسٍ لها، المرأة هي أكثر من نصف المجتمع برأيّ.

ثانياً، لم أكلمك ليومين لأني أردت أن أعرف هل سوف تستطيعين أن تبقي بدون كلامٍ معي، أم أنكِ ستستسلمين بس، لكنكِ أبهرتني ليومين كاملين.

- لكني كلمتك.

- بعد يومين..

- يعني الآن نحن متصالحان.

- منذ اللحظة التي رفعت فيها الهاتف لتكلميني،

بعد عتاب محبة من كلينا، تناقشنا قليلاً ببعض الأمور، وبعدها بقليل تقدمت إلينا فتاة، كان يبدو أنها من أقرباء خالد، سلمت عليه ثم سلمت عليَّ.، عرفنا خالد ببعض، لكنه لم يكن تعريفاً عادياً، لأنه عرفني عليها على أساس أنني خطيبته، لما أخبرها أنني خطيبته، هل ليبراء وجودي معه؟ أم فعلاً يعتبرني خطيبته.؟. بقيتُ جالسةً استمع لحديثهما، تبدو أنها إحدى قارياته من بعيد، وبعد دقائق أعتذرت، استأذنتأ وانسحبت هي وصديقاتها، أعاد بنظره إليّ بعد أن غادرت الفتاة، انظر إلى صمته وينظر إلى صمتي، فما تقوله الأعين أكثر من أن تقوله الألسن، وضعت فنجان القهوة من يدي على الطاولة وقلت له.

- لماذا قلت عني أنني خطيبتك.

- ولما لا أقول مثلاً.. ألا ترين في نفسكِ أنكِ خطيبتي.

- لكننا لم نتكلم بجديةٍ أبداً في هذا الأمر.. بل لم نتكلم به أصلاً..

- وماذا تتوقعين غير الزواج كنهاية لنا..

- لا أعلم.. لم أفكر أبداً.. بصراحة نحن ننتظر معاملة السفر إلى السويد كما تعلم.. لقد أخبرتك قبلاً.

- لا يوجد سفر.. بعد أن تعودي من الأردن سأتي لخطبتك.. لذلك أردت

رؤيتك الأن...

- لكن ياخالد أنا لم أحضر نفسي لهذا الشيء.. وأبي لايعرف أيَّ شي أيضاً..

- أخبريه إذاً.. ما لذي تنتظريه... لأن بعد عودتكم من الأردن سينتهي كل شيئ...

عدت لصمتي.. ولم أجبه بأيَّ شيء.. لقد قرر وانتهى... متى فكر وقرر.. لابد أن أمه تعلم.. ولكن أبي مازال لا يعرف أيَّ شيء.. كان قد أخبرني أن والدته تريد فعلاً أن تزوجه.. لأن أخوته متزوجون بالفعل.. والسفرإلى السويد.. لقد انهاه فعلاً... لم يعد هناك سفر.. عدت إلى البيت.. ويدي محملةٌ ببعض الكتب، وعقلي محملٌ بكل شي، الأفكار تحيطني من كلَّ اتجاه، كيف سأخبر أبي، لو أخبرته الآن سيحاول أن يراه بأيَّ طريقة، لا أريد أن أعكر أيَّ شيء الآن، لنذهب إلى الأردن وبعد عودتنا أخبره بكلَّ شيء، مضت الأيامُ طبيعيةً جداً، استلمت الفيزا، حددنا موعداً للسفر، كنت مشغولةً جداً، جدولي اليومي مملوءٌ بين الإمتحانات وخالد ووالدي، خالد أه من خالد، كنا نتكلم كلَّ يوم لأنني تعودت على سماع صوته، أراه لوقتٍ قصير في الجامعة، لكنني أكلمه كلَّ ليلة.، لم أعد استطيع النوم بدون أن أسمعه يقول لي أحبك، كان يقولها كلَّ ليلةٍ بطريقةٍ مختلفة، بإسلوبٍ مختلف، لطيفاً أنيقاً في اختيارات عباراته.

لم يحرجني بكلمةٍ أبداً، بل بالعكس كان يهدئني حينما انزعج، ويتحمل عصبيتي في بعض الأحيان بكلِّ هدوء، كبطل الروايات والأساطير، شخصيته

متكاملة، طيبٌ هادئٌ مثل الملائكة، جميلٌ كآلهةِ اليونان. حتى بدأ لي كأنه أصبح أقرب إلى خالد بن طوبال؛ أيعقل! خالد الحجاج أخذ مكان خالد بن طوبال بعقلي وقلبي، أتخيله وهو جالسٌ على الأريكةِ يقراءُ كتاب، يحتسي القهوة، يعمل على بحثٍ ما، وأتخيل نفسي معه، أناوله فنجان القهوة، أعطيه رأيّ بما يكتب، اقرأ معه، أتخيله يجلس في الحديقة، يقرأ الجريدة أو كتاب.، أتخيله في المطبخ يتذوق ما قد أحضرت للعشاء، يساعدني في ترتيب الطعام، لقد ذهب فكري بعيداً جداً، لكنها أحلامي، وأنا أثق بها، أفكر بأبي، إذا ما تزوجت فعلاً سيبقى لوحده، ما الذي سيحدث له، ولا أعلم كم سيطول بعد معاملات سفره،لا استطيع أن اطرح فكرة أن أعيش مع والدي بعد أن نتزوج، لن يقبل أبداً، من المستحيل على خالد أن يوافق، لقد وقعتُ بين نارين، اتصلت بريتا.. اتفقنا على الموعد، ذهبت أنا وخالد للحجز، موعد سفرنا كان بعد أسبوع، أيّ قبل العرس بأربعة أيامٍ فقط.. على الأقل سأصل وارتاح قبل اليوم المقرر للأحتفال.. فاتت الأيام بسرعة.. الأسبوع مضى وقلبي يؤلمني.. لن أراه لمدة طويلة.. لقد تعودت على رؤيته في الجامعة وخارجها.. ذهبنا إلى المطار.. ركبنا الطائرة المتجهة إلى الأردن.. حلقنا بعيداً وبقي قلبي في العراق مع خالد.. لم يسافر معي.. هل للوداع مكانٌ أم أنه سفينةٌ بلا شراع (مقتبس).

وصلنا؛ التقتنا عائلة ريتا بحبٍ كبير، لم يرضوا أن نستأجر في فندق، ولكنهم أصروا أن نبقى سوياً في بيتهم الذي استأجروه، لقد كان كبيراً نوعاً ما، لم

أرى ريتا منذ زمن، احتضنتها طويلاً، أضمها إلى صدري لعلي أعيد أجمل ذكرياتي معها، قبل سنين كنا أطفالاً لا نعي شيئاً سوى اللعب والضحك، والآن هموم الدنيا فوق رؤوسنا، رغم الألم الذي يلف ماضينا، رغم الحزن تبقى هناك ذكرياتٍ جميلة، لازالت تنعش ذاكرتنا، بعد أن ارتحنا من السفر، أخذت ريتا معي إلى الغرفة التي سنبقى فيها أنا وأبي، وفتحت حقائب السفر وأعطيتها شيئاً كان لها ولعائلتها في يومٍ من الأيام، احتفظتُ به كل هذه السنين لأرده لأصحابه، كنت قد خبأتها في قلبي مثلما كنت اخبأ قلبي بين اضلعي، (أيقونة العذراء مريم). أخذتها ذات يومٍ بعد أن أغتسلت بدماء والد ريتا في يومٍ مشؤوم من أيام حياتنا.. وعهدت نفسي بأني سأردها إلى أصحابها.. وها قد أتى هذا اليوم.. فرحت ريتا جداً.. لم تكن تتخيل فعلاً أنها ستراها يوماً ما، ولم أخبرها أبداً أنها كانت بحوزتي، لأنني أردت أن افاجأها يوماً ما بها.

- لقد أعدت إليَّ أبي يا أحلام.

- اتمنى أن تحفظك مثلما حفظتني دائماً..

نتقاسم وريتا نفس المصير، فهي يتيمة الأب وأنا يتيمة الأم، وينقصنا حضنٌ أخر نحتاج إليه في بعض الأحيان، أفكر أن الموت ليس صعباً على الذين يموتون، بل على الأحياء من بعدهم، مثلاً أمي لا تحس بالموت الآن، وأنا التي أموت قهراً بدونها، أفكر فيها، أتحسس وجودها، أفكر لو كانت معي الآن، ماذا ستقول أو تفعل، لا أحد يملئ مكان الأم والأب أبداً، لقد قرأت يوماً لكاتب تركي، لا

أذكر اسمه أنه عندما يموت شخصاً عزيزاً على قلبنا تضيء أربعين شمعة في قلبنا تحرقه، وكل يوم تنطفئ شمعة واحدة، ثم بعدها تبقى الشمعة الأخيرة، فحينما تنطفئ تعود لتشتعل بسبب ذكراه أو رائحته، أو أغنية، اووو فتبقى الشمعة الأربعين مضاءة دائماً طوال العمر بسبب تلك الذكريات التي تجعلها تنير حياتنا، ها هي ريتا تتزوج بعيدةً عن بلدها، وبدون والدها الذي من المفروض أن يسلمها إلى عريسها الذي سيصبح زوجها، لقد حرمت من حنان الأب وحنين الوطن، الوطن الذي أصبحنا نتيتم بسببه كل يوم، ونبكيه كل يوم، ونتذكره بالشمعة المحترقة داخلنا، فليس لأحدٍ كرامة إلا في وطنه، ولكننا لا نجد الكرامة في بلدنا، فأصبحنا نبحث عنها في بلداناً أخرى، ولا يزال ذكراه تحرق ذاكرتنا وتعصر قلبنا.

ذهبنا أنا وريتا إلى وسط البلد لنشتري بعض الأغراض التي كنا نحتاجها في المنزل، وذهب والدي مع خطيب ريتا وأخيها وابن عمها لإكمال احتياجات الزواج، بقيتَ والدتها تحضر بعض الطعام، فلقد اشتقت لطعام أم ريتا، كانت تحضر لنا الكبة الموصلية والدولمة والقيسي، كانت أكلتي المفضلة، لم تكن تعرف زوجة عمي طبخها، لأنها خاصة بأهالي الموصل، ولم أكن أعرف كيف يحضرونها أنا الأخرى، بعد أن عدنا جميعاً، تجمعنا حول مائدة الطعام مثلما كنا بالماضي الذي لن يعود أبداً، وأصوات ضحكاتنا وملاعقنا في الصحون تملئُ المكان، أحاديث ذكرياتنا والزمن الجميل، ها قد أتى اليوم المنتظر، يوم عرس ريتا، استيقظنا منذ

الصباح الباكر، وذهبنا إلى صالون الحلاقة كي نرتب أنفسنا كما هي العادات، كانت تبدو كلوحةٍ جميلةٍ مرسومةٌ بفرشاة رسام، ريتا وجمالها الأسمر الخلاب، بعد أن انتهينا، عدنا إلى المنزل، ومن عادت الزواج العراقي، وخاصةً أن يأتي العريس إلى منزل العروس لكي يأخذها إلى الكنيسة، ولأن ريتا مسيحية سوف تعقد قرانها بتبريك من الكنيسة أولاً، وصلنا إلى الكنيسة شبكت ريتا يدها بيد أخيها الذي سيوصلها إلى خطيبها الواقف أمام المذبح، لقد كانت الكنيسة جميلة جداً، فيها الكثير من المقاعد والصور والتماثيل المنحوتة بعنايةٍ رائعة، الشموع المضاءة، رائحةُ البخور التي تجعلك تحس بالأمان والهدوء، ليس هناك اختلافٌ كبيرٌ بتصميم الكنيسة عن المسجد، فالاثنين يعتبران بيوت لله.

انتهت المراسيم التي أعلنتهما زوجاً وزوجة، وبفرحٍ يعم الجميع، ذهبنا إلى الصالة التي سيقام فيها العرس، في تلك الصالة المزينة والمرتبة، قضينا ساعات من أجمل ما يكون، رقصوا الدبكة العراقية والجوبي، استمتعنا بوقتنا كثيراً، كما أنهم سيقضون يومين بالفندق لوحدهم طبعاً، فهم عرسان جدد، انتهى العرس، عدنا إلى البيت بعد يومٍ طويل جداً، لكنه كان ساحراً بثوب ريتا الأبيض وباقة الورد التي بيدها، كانت هي الوردة التي تتفتح توا، وضعت رأسي على وسادتي وأنا أفكر باليوم الذي سأكون فيه عروساً، وأزف إلى خالد وغلبني النعاس، لم أشعر أنني نمت حتى الظهر، استيقظت بسرعةٍ بعد أن علمت أنها الساعة الثانية عشر ظهراً، رتبت فراشي، غسلت وجهي، بدلتُ ملابسى، ولم أضيع وقتي، أكلتُ

شيئاً قليلاً، وأردت أن يرافقني أبي إلى المدرج الروماني بوسط البلد، لكنه كان متعب ولم يرضى الخروج معي، اضطررت أن أذهب وحدي، لا يهم.. ليس بعيداً عن المكان الذي نعيش به حالياً؛ مشيت ما يقارب النصف ساعة، ثم وصلت إلى المكان، انبهرت بالأثار الجميلة التي فيه، وجدت الكثير من السياح والأجانب حتى العرب، عمرها يقارب الأف السنين، ولا زالت كما هي تقريباً، ماهذه الهندسة الرائعة، أغمضت عيني، بدأت أتخيل المكان معبئ بالناس، أرى الكثير من الحكايات تحدث والحوادث، أصوات الناس، صراخهم، الكثير من القصص حدثت هنا وتناقلتها الأجيال، بعدها قاطعني صوت هاتفي، أخذته لأرى من قد أرسل لي رسالة، فتحته،إنها من خالد، قرأتها، يقول لي فيها أن اتصل به لو أمكنني ذلك، اتصلت فوراً فأنا لوحدي، رن الهاتف، رن، رن،

- لقد اشتقت إليك..

- وأنا أيضاً ياخالد.. كيف حالك؟

- بخير، وأنت.

- الحمد لله.. لقد تزوجت ريتا البارحة .. كم تمنيت أن تكون موجوداً.

-هل حقا تمنيت ذلك؟

- طبعاً.

- إذاً أحكي لي ماذا تفعلين وأين أنتِ؟

- أنا بالمدرج الروماني وسط البلد.

- أخبريني ماذا ترين..

بدأت أصف له كل شيء.. الجدران والمدرجات الرسومات الأثار المنتشرة هنا وهناك... أتكلم وأتكلم.. وهو يستمع ويناقش معي كل شيء.. نصف ساعة وأنا أتكلم كأنني طفلة تكتشف لعبةٍ جديدة أهدت إليَّ..... بعد قليل أخبرني أن أخرج إلى الساحة المقابلة من المدرج.. هناك ساعة كبيرة في وسطها.. هو يعرف هذه الأماكن.. لقد زار الأردن من قبل.. أخبرني أنه كان قد ذهب قبل سنتين هنا من أجل بعثة دراسية لمدة شهرين.. فهو يعرف كل هذه الأماكن تقريباً.. خرجت إلى الساحة... اتلفت يميناً ويساراً.. أشاهد ماهناك.. وإذا هو واقفٌ أمامي فاتحاً ذراعيه وكأنه ينأديي كي أهرب واختفي بين أحضانه إلى الأبد... ونصبح الأثنين واحد.. بدون أيّ شعور.. كنت قد ركضت إليه.. أحتضنته بكل ما في من قوة ومن قلبي شوقاً إليه وهو يغوص في شعري وعنقي... انتبهت إلى نفسي.. وما فعلت بدون تفكير.. أبتعدت عنه قليلاً.. ولا زالت يدي بين يديه.. فأمسك بيدي وقبلها... كأنه يطبع قبلته على خدي أو شفتي.. وفي

عينيه بريقٌ لم أعهده من قبل..

- كيف أتيت؟ متى أتيت؟ لما لم تخبرني؟

- لقد وصلت البارحة.. ولا أعلم أنه كان عرس ريتا.. لم أرد أن اشغل بالك.. فأردت أن أخبرك اليوم.. ومن حسن حظي أنكِ في الخارج.

- وأين تنزل؟

- بالقرب من شارع الحسين.. في إحدى الفنادق.. سوف أبقى لأسبوع واحد فقط.

- إذاً سنذهب للبتراء معاً.

- لما لا.. نذهب للبتراء سوياً..

سافر ورائي ليراني.. لم أكن أتصور أبداً أن يصل إلى هذه الحالة من الجنون.. لقد أخبرني انه قدم على الفيزا بعد أن قدمت أنا.. وكان يجرب حظه لعله يأتي ويفاجئني... فعلاً حدث.. بقينا لساعة او ربما أكثر.. أوصلني إلى المنزل الذي أعيش فيه حالياً مع أهل ريتا وعاد هو إلى فندقه... وحينما دخلت إلى البيت كان وجهي سعيداً والدماء قد ملئت عروقي.. واحمر وجهي وخدودي الوردية تعكس أشراقة رائعة... الابتسامة الغبية على شفتي جعلت أبي يسألني هل كل هذه السعادة من أجل المدرج الروماني فقط؟.

- هل كل هذه السعادة لأنكِ زرت المدرجات؟

- يا أبي لقد كانت رائعة كلَّ الأثار جميلة..

- ماهي خططك الأخرى؟ لابد أن هناك خطط.

- سوف أذهب إلى البتراء.

- طبعاً ستذهبين، أنا متأكد من ذلك.

- ألن تأتي أيضاً.

- أنتِ تعلمين، أنا لا أحب هكذا سفرات طويلة ولساعات.

- حسناً إذاً أذهب مع جروب السياحة.

بعدها بقليل دخلت إلى غرفتي، اتصلت بريتا، لأسالها إذ تحتاج شيء ما من البيت، وأخبرها طبعاً ما حدث معي للتو، كما أنني سأذهب للبتراء مع خالد، أحلامي تتحقق واحدة تلو الأخرى، نذهب مع جروب سياحي يضم أناس مثلي من العالم أجمع، سعيدة، سعيدةٌ جداً أنني أسرق الأيام من الزمن، ولا يهمني هل سأعيش بعدها أو لا، المهم أنني أعيش الآن كلَّ ما أريد وبجانبي خالد، في الليلة قبل الرحلة حضرت حقيبة الظهر، ووضعت فيها ما قد احتاجه هناك، وأم ريتا حضرت لي بعض الأشياء للأكل أيضاً، وأكدت عليه أن تضع الكثير بحجة أن لا أشعر بالجوع ولكنني كنت أفكر بحصة خالد أيضاً، لم استطع النوم بسهولة لأنني كنت أفكر باليوم التالي، ولكنني نمت أخيراً ولا أعرف متى، استيقظت على صوت المنبه، تجهزت بسرعة، أخذت أشيائي وخرجت، التقيت خالد عند الحافلة المخصصة للجروب السياحي، وانطلقنا بالطري، جلس خالد بجانبى، ننطلق في رحلةٍ سحريةٍ تجمعني بأحلامي.. تجمعني بالماضي.. إنه ماضينا وحضارتنا.. أنا اعشق هذه الأماكن جدا.. فقط أغمض عيني لأتخيل نفسي قد عدت بالزمن إلى الوراء فأرى الناس كيف كانوا يعيشون ويلبسون؛ كيف كانو يتكلمون ويعشقون، أحلم أحلام يقظة تسرقني من واقعي لأعيش بمخيلتي، طوال الطريق وأنا أتحدث بدون توقف.. لا أعرف ما الذي حدث لي، بالعادة أنا لا أتكلم هكذا، حتى خالد الذي يسكت كثيراً شاركني نفس الحماس الذي أشعر

به.. تكلمنا عن أشياءٍ مهمة وسخيفة، أي شيء يخطر على بالكم، فقط من أجل الكلام، من أجل أن نسمع أصوات بعضنا البعض، وصلنا البتراء، إحدى عجائب الدنيا السبعة، المدينة الوردية التي نحتت في الجبال، كما ينحت الحب في القلب.. البتراء، المدينة المنحوته في الصخور.. والبوابة الرومانية التي لا زالت قائمةً إلى يومنا هذا.. والطرق التي تؤدي إلى المدينة رائع يقع بين شق صخري كبير.. الطبيعة فيها رائعة.. كلما التفت رأيت لوحة فنية من الصخور.. هندسة خاليةً من الأخطاء، لو أردت أن أقول أن المدينة كلها عبارة عن لوحة منقوشة في الصخور، كيف يعقل لأناسٍ ليس لديهم أيٌّ من التسهيلات التكنولوجية التي لدينا الآن أن يعمروا هذا الصرح؟، كيف استطاعوا بناء هذه المدينة بدون الأدوات التي يستخدمها المختصون الآن؟، كما أنها خالدة منذ ألاف السنين!

لقد كان العقل البشري آنذاك أذكى وأكثر حرفية.. كان لديهم الصبر على إكمال العمل والقيام به مهما كلفهم الأمر، كنت مبهورة بالفن التاريخي الذي كان موجوداً في المباني التي لاتزال قائمة، مثل قصر البنت والدير والمدرج الروماني الكبير والملعب والمحكمة، رغم كل الظروف المناخية والطبيعية فهي تكاد تخلو من تأثيرات كبيرةٍ عليها، هذا ما أحبه في التاريخ.. أن يبقى على مر الزمان، وخاصةً مثل هذه الأثار التي تحكي لنا قصة عن جهاد أولئك البشر الذين عاشوا في تلك الفترة والفترات التي تلت، كانت لخالد نظرات غريبةٌ تعتليه وعلى شفتيه ابتسامة ساحرة.. وحينما سألته ماذا بك؟

قال لي: إنني سعيد لأنكِ سعيدة.. لو ترين اللمعان الذي في عينيك والبريق الذي يتوهج منهما.. وشفتيك اللتين ما توقفت عن الابتسام منذ اللحظة التي صعدنا فيها إلى الحافلة، نعم لقد كنتُ سعيدة.. سعيدةٌ جداً؛ كأن قدمي لم تعد تحملني، وإنما اطير. ولا أسير على الأرض.. ولا أعلم هل أنا سعيدة لأن خالد معي أم لأني متواجدة هنا؟!. أم الأثنين معاً؟. جلسنا للاستراحة وتناول الطعام، لم أكن أشعر بالجوع.. حينما أكون متحمسة لا أشعر بالجوع أبداً، أصلا لم أكن جائعة، فاللهفة والشعور الذي كان يغمرني قد انساني الجوع تماماً، ولكن خالد أصر على أن أكل حتى لا أجوع بطريق العودة، فعلاً جلسنا بإحدى الأماكن المخصصة للطعام، وافترشنا الأرض..

رتب معي الطعام على الأرض.. ومد لي ببعضٍ منه.. ثم لما انتهينا.. صببت الشاي الذي كنت قد وضعته في ترمز محتفظاً بحرارته.. وبينما نحن نشرب الشاي صادفنا زوجان أجنبيان.. دعاهما خالد للجلوس معنا وقدمنا لهما ما كان موجود مع كوبين من الشاي أيضاً.. سعداء جداً لأنهم دائماً ما يسافرون إلى البلدان العربية.. لإنها باعتقادهم من أفضل المدن التاريخية في العالم، مع العلم أنها كذلك.. لكن أوضاع بلادنا لا تشجع على السياحة في بعضٍ منها، بقينا مع الزوجين الأجنبيين طوال فترة ما بعد الغداء.. حتى انتهت الرحلة.. عدنا مع الجروب السياحي إلى عمان.. كانت رحلة من العمر.؛ لم أحس فيها بالتعب ولو للحظة.. الجو رائع.. الحياة جميلة.. والأردن أحلى بما فيها كل ما فيها، عندما

دخلت إلى المنزل.. كان والدي وأم ريتا وأخواها جالسين في الصالة يشاهدون التلفاز.. حينما رأوني والضحكة على شفتي وأغني أغاني لم أغنيها من قبل.. قبلت أبي وأم ريتا، ودخلت للغرفة، في تلك اللحظة جاء خلفي والدي يسألني ماخطبي، فقلت له إنني سعيدةٌ برحلتي هذه؛ لكنني أحسست أنه فهم أن هناك شيئاً غريباً يحدث معي، ولكنه لم يقل شيئاً، لابد أنه ينتظر أن نعود إلى بغداد، على الأقل لن يقول شيئاً الآن، لن يسأل حتى وقتٍ غير معلوم.. لم يتبقى من وقتٍ لخالد سوى يومٌ واحد فقط.. فغداً صباحاً سيعود إلى بغداد، منذ عودتنا من البتراء لم أره سوى مرة واحدة ولنصف ساعة فقط... لأنني لو خرجت مرة أخرى بدون عذرٍ أو بدون ريتا سيفهم والدي أن هناك شيئاً، لابد من ذلك قبل سفره بيوم.. ترجاني أن أذهب للقياه، وأنا ترجيت ريتا لنخرج ولو ساعة واحدة فقط، ووافقت بشرط أن لا نتأخر كي لا يسألوها اسئلةً كثيرة، خرجت أنا وريتا وذهبنا إلى الفندق الذي ينزل فيه، هناك صالة للجلوس في بهو الفندق، اوصلتني ريتا للفندق، واتفقنا أن نلتقي في السوق القريب منه بعد ساعة واحدة فقط.. ستتجول بالسوق، وبعدها نعود سوياً، ذهبت هي.. وأنا بقيت في الفندق.. طلبت اسمه فأخبروه أني موجودة.. نزل ليحيني.. أمسك بيدي قبلها.. كان جسدي كله يرتعش.. جلسنا قليلاً.. ثم طلب مني الصعود لغرفته؛ على الأقل لنجلس براحةٍ أكثر، ترددت بالبداية.. ففهم خوفي.

– أتخافين مني.

- لا أخاف لكنني لا أحب هذه الفكرة.

- كم مرة قلت لكِ.. لاتخافي مني.. ثقي فقط.

- أنا أثق بك.. لكنني لا أثق بنفسي.

- ما معني هذا.

- لا شيء... ارجوك هل أنت مصر علي أن نذهب لغرفتك.

- لا تخافي لن أفعل شيئاً يحزنك.

تشجعت وصعدت إلى غرفته، فتح الباب ودخلنا.. كانت مرتبة جداً لرجل أعزب.. ملابسه مرتبة.. وتقريباً انتهى من تحضير حقائبه للعودة، جلست على حافة السرير؛ قدم لي بعض الشوكلاتة التي كانت موجودة على الطاولة في الغرفة... جلس بجانبي.. لم نتكلم كثيراً.. فنحن الأثنين كنا متوتران.

- هل سيكون حالنا هكذا لو تزوجنا.

- كيف يعني ؟

- لا أعلم.... الباب مغلق.. جالسان بجانب بعض لنتكلم.

- لا أعتقد هذا فقط.

نظرت إليه.. وكأنني أطلب منه أن لايقول كلمة أخرى بعد.

أمسك يدي.. سحبتها واتجهت نحو الباب أتى خلفي سحبني إليه.. أمسكني من خصري وطبع قبله على شفتي.. ثم ابتعد عنه.. وأنا ارتجف... حاولت فتح الباب لأخرج.. أوقفني ثم قال..

- حالما تعودين سوف أتي لخطبتك.. لم أعد قادراً على الإحتمال أكثر.

- تمام.. لكن الآن يجب أن أعود..

فتح الباب لي.. خرجت مسرعةً أجري على السلالم لم انتظر حتى المصعد.. قلبي يخفق بشدة ويداي ترتجفان.. وجهي تلون بأكثر من لونٍ.. عندما خرجت بخطواتٍ متسارعة هدأتُ قليلاً، توقفت فجأة أعود بذاكرتي لقبل دقائق.. إلى اللحظة التي قبلني فيها.. لقد كانت قبلته كالمورفين المهدئ الذي جعل جسدي مخدراً تحت شفتيه.. وبعدها لمست شفتي وكأنني أتحسس قبلته، ثم أكملت طريقي لالتقي بريتا، بالمكان المقررعلى اللقاء للعودة سوياً للمنزل، "الحب واحدٌ من الأشياء التي تستطيع أن تغير مجمل حياة المرء بين لحظة وأخرى (باولو كويلو)."

الفصل الثالث

التعليم رسالة الأنبياء، رسالة أخلاقية قبل ان تكون من أجل المعرفة، التعليم ليس مجرد نقلٌ للعلم أو المعرفة من شخصٍ إلى أخر، وإنما هي مهنةٌ ذات أبعادٍ أخلاقية وتنظيم سلوكي للإنسان، ثم التشبع العقلي المعرفي، فالمعلم صاحب رسالة يجب أن يشعر بقدسيتها وعظمتها ويؤمن بها، ويجب أن يعتز المعلم بهذه الرسالة والمهنة، لأن المدرس أو الأستاذ يعتبر الشخص الذي يبني المستقبل بصورة غير مباشرة، بالعلم تفتح الأبواب أمام الإنسان، وبالأخلاق يبني مجتمع تقوده الشعوب إلى مصاف الدول العظمى، لذلك على المعلم أن يكون على علاقة طيبة بتلاميذه كما تكون علاقة الأب بابنه، أو علاقة الأخ الكبير بأخيه الصغير، ولكل إنسانٍ منا قدوة في حياته يحاول أن يتشبه بها، فماذا لو كان أستاذنا حينها، سيكون التعليم المعرفي والسلوكي بأفضل حال.

(خالد الحجاج) أستاذ اللغةِ العربية، بعد تخرجي من جامعة البصرة، عينتُ كأستاذٍ للغةِ العربية في مدرسة بقرية تابعة لمحافظة البصرة، أحبُ عملي جداً، وأحب التجول والمغامرة ورؤية العالم، ولهذا أحببت فكرة أن أتنقل كل سنة في مكانٍ مختلف، أُلقي فيها رسالتي وأحاول تغير شيءٍ مما حولي ولو بقدرٍ بسيط، لذلك وافقت على أن أقوم بالتدريس كل سنة في منطقةٍ أو مدينةٍ مختلفة من محافظات العراق العظيم، كل سنة لدي حياةٌ جديدة، زملاءٌ جدد، تلاميذٌ جدد،

أماكنُ جديدة، ومدن مختلفة، تعجبني هذه الطريقة في العيش؛ لكن أخوتي وأمي لا يحبونها، لأنني افترق عنهم للكثير من الوقت، والمسافات بيننا تطول أيضاً، وبسبب الأوضاع الحالية، يصبح التنقل أقلُ بكثير، لأنهم لا يروني كثيراً إلا بالمناسبات والأعياد، والعطل الرسمية، هم لايعرفون ولايفهمون كم من الدروس أعطيت وأخذت في هذه الفترة من حياتي، في السنة الأولى التي عشت فيها أستاذاً للغة العربية بعد أن كنت طالباً لسنوات طويلة، وبعد أن أكملت التعليم العالي وشهادة الماجستير، لم أرضى بادى الأمر أن أعين في الجامعة التي تخرجت منها، وإنما أحببت أن أتذوق طعم أن أكون مدرساً لطلاب أصغر سناً، لأنني أحسست أن هذه الأعمار هي التي سوف تتشكل عقولها، وهي التي سوف تبني المجتمع بعد حين، الأعمار التي قمت بتدريسها كانت تتراوح بين ١٢ وال١٨ سنة، فهي أوج الشباب، يكون فيها الإنسانُ مندفعٌ نشيط، التغيرات المزاجية كثيرة ومتقلبةٌ جداً، لذلك أردت أن أخلق تغيراً في شخصيات هذه الفئة من الشباب، أو البنات، لأن هذه الفترة أيضا يبحث فيها عن بطلٍ يحذو حذوه، بطلٌ يتمنى أن يكون مثله، قدوةٌ يصبح مثلها في يوم من الأيام، مثلما فكرت أنا لما كنت بأعمارهم، فكان بطلي هو أستاذُ اللغةِ العربية، لهذا أحببتها، وأصبحت أستاذاً مثله، أو اتمنى أن أكون مثله، أتذكر إلى هذا اليوم.. الكلام الذي قاله لنا أستاذي في اليومِ الأخيرِ من العام الدراسي (إن من السهل على المعلم أن يأمر تلاميذه.. لكن الأهم هو أن يعرف كيف يغذيهم أخلاقياً وعلمياً.. لأن الصحراء

تحتاج إلى زراعة وليس الحقل)كما كان يقول (إن الإنسان الجاهل أخلاقياً هو من يحتاج إلى التعليم والتوجيه إلى الطريق الصحيح.. وليس المتعلم..) لذلك أنا أريد أن أقوم بمهمتي مع من يحتاجون التعليم ليس من أنهو تعليمهم... أول مكانٍ أعين فيها.. كانت تابعة للبصرة في قرية صغيرة شمال البصرة.. أغلب طلابها ينتمون إلى عائلاتٍ بسيطة في المعيشة والتعليم، قسمٌ كبيرٌ منهم كانوا يعملون مساءاً بعد خروجهم من المدرسة، يساعدون أهاليهم بالقدر الذي يستطيعون، لذلك كنت لا أجبرهم على مواد إضافية وواجبات منزلية أزيد فيها تعبهم، لكن هذا أحد الأسباب التي جعلت التحصيل الدراسي ضعيفٌ جداً، ففكرت بخطة جديدة لأساعدهم في تحسين درجاتهم الفصلية بالإمتحانات، ليجعلهم بالمستوى المطلوب ويحققون النجاح على الأقل، كنت بعد أن انهي حصتي، أطلب منهم أن يقولوا لي ما هي أكثر نقطة أحبوها في محاضرة اليوم، ثم أكتب اسم الطالب وإجابته، واكررنفس الشي مع باقي التلاميذ وبكل حصة، والتي تليها أيضاً، وعند نهاية كلَّ أسبوعٍ اسأل الطلاب عن النقاط التي تكلمنا عنها وأحبوا مناقشتها طوال الأسبوع، فكانوا يجيبون تقريباً بالشكل الذي أريد، وكلما فات الوقت أصبح تذكرهم أفضل وأفضل، وفي بعض الأوقات يتذكرون كلام أصدقائهم، ولو نسي أحدٌ ما قاله، يساعده أصدقائه بالتذكير، بهذه الطريقه أصبحت الدراسة أسهل بالنسبة لهم، وفي نهاية العام كان مستواهم جيد جداً بالنسبة للأشهر الأولى لهم، كنت لا أستسلمُ أبداً، كلَّ مرة أخلقُ شيئاً جديداً،

لعبةٌ ما، أسلوبٌ غريبٌ في شرح المادة، أيُّ شيءٍ يجعل الطلاب منجذبين للمادة ولي، كل هذا من أجل تحقيق هدفي.. وهو ترسيخ العلم في العقل.. والأخلاق في التعامل والسلوك.. ومنها انتقل من مدرسة إلى أخرى.. وخاصةً المدارس التي تعاني نقصاً في كوادرها التعليمية، وعند كل عقبة التفت إلى طريقٍ أخر لأصل إلى المكان الذي أريد المرور إليه..

رغم كل الأخطار التي واجهتني؛ كنت دائماً أحاول أن لا أضيع بين الفوضى التي توجد أمامي، فما أكثر الأساتذة الذين يقومون بعملهم فقط من أجل تضييع الوقت، أو فقط لأنهم يقومون بعمل لغاية مادية بحتة، أما أنا لم تهمني النقود، ما همني هو إخراج جيلٍ مثقف واعي ذو أخلاقٍ عالية، لأن هذا هو الذي سيبني البلد مستقبلاً، بلد عانى الكثير والكثير ولايزال يعاني، جيلٌ أصبحت فيه التكنولوجيا تقتل العقل، وكأننا أصبحنا روبورتات (إنسان آلي).. لا نستخدم عقلنا ولا مهاراتنا مثلما نستخدم التكنولوجيا ومهارتها.. أعجبتني مقولة لجبران خليل جبران يقول فيها (تقوم الأوطان على

ثلاثة. فلاحٌ يغذيه.. جندي يحميه.. معلمٌ يربيه..) وأنا كنت مثله اتبع نظرياته للحياة، فكنت أدس رأسي في الكتب ولا أرفعها إلا إذا ناداني أحدٌ، أو لدي عملٌ أفعله، قرأت الكثير كما استمتعت إلى جدي وجدتي، وأخذت من الحكم التي كانوا يحكونها لي.. وإلى أسلوبهم في التربية رغم بساطته، لكنه هو ما جعل والدي كما كان.. وأنا مثله، نصحت تلاميذي أيضاً بالقرأة.. ومتابعة

الأفلام الوثائقية.. والتاريخية.. لأننا بالكتاب نحلق بعوالم أخرى ونحن جالسون في غرفنا؛ مثلاً حين تمسك كتاب فانت تمسك عالم أخر.. عادات أخرى.. ثقافات أخرى.. أما عن الأفلام الوثائقية والتاريخية.. فهي تقربنا من الماضي وما كانت الحياة عليه وكيف أصبحت.. كيف كان العالم قبلنا وكيف كانو يتعايشون ويتعاملون.. كيف بنيت الحضارات وكيف تناقلت المعرفة من جيلٍ إلى أخر.

نحن لا نريد أن نغوص في الماضي لكي نكتشف المستقبل فقط، بل لأن التاريخ هو بوابةُ المستقبل، بقيت على هذه الحال حتى وقع بي الأمر إلى نينوى، بلاد آشور القديمة.. وقتها نقلت إليها بشكل مستعجلٍ، لأن أستاذة اللغة العربية توقفت عن العمل بسبب أجازة للامومة، وعينت أنا بدلاً عنها، حتى ينتهي العام الدراسي وأعود إلى مدرستي التي أنا فيها حالياً، فتطوعت أنا للقيام بهذه الرحلة والتدريس في موصل الحدباء، منذ اللحظة التي دخلت فيها تلك المدرسة الثانوية الخاصة بالبنات وأنا أحسست بشي سيحدث لي حينها.. كل الأنظار كانت تلف حولي من قبل؛ شابات مراهقات صغيرات.. وأستاذ قريبٌ جداً من أعمارهن، كما أنني وسيمٌ بعض الشيء، اعتمدت على سني للإقتراب من طلابي لأنه يساعدني على فهمهم بطريقةٍ أسرع، دق جرس المدرسة معلناً بدء الحصص المدرسية، حصتي الأولى تبدأ بعد أن أدخل إلى الفصل الدراسي الجديد، دخلت إلى الفصل عرفت نفسي، وبدأت الاسئلة تأتيني واحدة تلوا الأخرى، بصراحةٍ لم أقم بالتدريس لفتياتٍ من قبل.. لم أعرف كيف أتعامل معهن بصراحة، لكن اعتقد

أنهن أهدى من الأولاد، وأكثر خجلاً بالتأكيد، تحاول الفتيات التعرف علي، وأنا أحاول أن أكسر الحاجز بيننا، ما بين الأستاذ والطالب؛ الفتيات تختلف اختلافاً كبيراً عن الفتيان، بدلعهم الجميل، وكلامهم المعسول، وحلاوة اسئلتهم، لكن واحدة منهم جذبت انتباهي بالفعل، حين سألتني لو كنتُ خالد بن طوبال، من أين تعرف خالد بن طوبال إذا لم تكن قد قرأت روايته في ثلاثية أحلام مستغانمي، لابد أنها قارئةٌ إذاً، وكيف أكون خالد بن طوبال ونحن من جيلين مختلفين، من بلدان مختلفةٍ أصلاً، تبدو ساذجة من جهة، وذكيةً من جهةٍ أخرى.. لكن بالتأكيد تختلف عن قريناتها بشكلٍ ملحوظ.. نظرت إليها طويلاً؛ حاولت أن أقولَ شيئاً ما.. لكنني أجبت فقط حينها؛

- لست أنا.. ولكني استطيع أن أكون لو أردت...

فأحسست أنني أخجلتها.. فسكتُ وأزاحت ناظريها عني وسكتت أيضاً.. ثم أكملتُ باقي المحاضرة.. لقد كانت فتاة هادئة جميلة ذو عينين كبيرتين.. ظفيرتاها المجدولتان على كتفيها.. تبدو ذكية جداً.. لقد اعتمدت عليها في المحاضرات الأخرى كي تساعدني في شرحها.. لأنها ملمة باللغة العربية.. كانت أحلام مليئة بالأحلام.. ومع هذا كانت تتجنبني كثيراً.. ربما لأنها خجلت منذ اليوم الأول من تصرفها معي.. أو أنها أحست أنني اعتمد عليها كثيراً في الحصص.. لكن كانت أذكى واحدةٌ بينهن.. وهي التي كانت تساعد الجميع في كل شيء.. في كلَّ يوم أعود فيه إلى منزلي الذي استأجرته أنا وعدة زملاء لي من

الذين يعملون بأمور مختلفة؛ أبقى أفكر فيها.. لقد جذبت تفكيري حقاً، لكني دائماً كنت أطرد هذه الأفكار مني، لأنني جئت كي أوأدي رسالةً ولست كي اعشق وأغرم، وأعيش حكايةَ حبٍ، قد تكون أثارها غير جيد في وقتٍ ما، أغمضت عيني، تخيلتها أمامي بضفيرتيها وعينيها الكبيرتين، ثم فتحتهما بسرعة فقط لأطرد أحلامي، ليست هذه أخلاقي ولا مبادئي، لا زالت هي طالبة، وأنا أستاذ.. كيف أفكر بها هكذا.. حاولت أن أقنع نفسي بوجوب توخي الحذر أكثر.. كما أنني أول الأمر وأخره مدرسٌ مؤقت سوف يعود إلى مدينته بعد انتهاء السنة الدراسية؛ ولامجال للقصص واللعب، في بعض الأحيان كنت أكره نفسي، واشبهها بأستاذ كان زميلاً لي في إحدى السنوات، وكان قد أقام علاقة مع إحدى طالباته.. وكانا يتراسلان على الهاتف.. حتى وقعت ضحية له ولشهواته الحيوانية.. وحين اكتشف أمرهما قتلت الفتاة من قبل أهلها وهو رمي بالسجن، كنت حينها أدرس بمدرسه للأولاد وهو للبنات، لقد كانت هذه الجريمة قد هزت الوسط حينها والمدرسة والمدينة، كيف استطاع وحشٌ كهذا افتراس بريئةٍ بدون تفكير، أن اللعب بعقول المراهقين هو جريمو بحد ذاتها، فكيف أن قام مدرس دارك أن يؤذي فتاة غير مدركة لأمور الحياة.. إن المعلم له رسالته التي هي قائمة على بث الأخلاق والتربية بدل السلوك المنحرف الذي قام به ذلك الأستاذ..حاولت بشتئ الطرق إبعاد مخيلتي عنها، ليس لأن أخلاقي لاتسمح.. لكني لا أريد أن أقع في هذه الشبكة من المشاعر المتشابكة حتى لو كانت بريئة،

فيجب علي مقاومتها، لقد جئت لاترك أثراً طيباً، ورسالة تؤثر في النفوس، وذكرياتٍ جميلة، يستقر في كل شخصٍ منا شعورٌ غريب، خاصةً حينما تكون بعيداً عن بلادك أو مدينتك أو أهلك، شعورٌ إلى الحنين الذي يفيض كلما سمعت صوت أمك، كانت أمي من أقرب الناس إليَّ، بعكس أخوتي الذين كانوا مقربين من والدي أكثر، أما أنا فكانت أمي هي خزينة أفكاري وأسرار حياتي كلها، كلما اسمع صوتها أشعر بالحنين الذي يتدفق من حنجرتها، أشعر أن كلماتها تطوقني، تحتضنني بدلاً عن ذراعيها، صوتها الشجي يجعل الكلمات تقف في حنجرتي أبكي من غير دموع، كي لا أحسسها بأنني مخنوقٌ من دونها، أشعر في بعض الأحيان بالضياع لأنها ليست معي، لكنها دائماً ما تقويني وتشجعني، لهذا، اضعها أمامي في كل مرة احتاج لها.. أرها تكلمي تسندني وتخبرني بما يجب أن أفعل، الحنين نفسه أحسه كلما أدخل إلى فصل أحلام للحظات.

أحس أن أحبالي الصوتية تنقطع فاتوقف عن الكلام.. التفتُ إلى اللوح الكبير المعلق على الجدار، أغمضُ عيني، أتنفس بعمقٍ، أتذكر كل الوعود التي قطعتها على نفسي؛ ثم التفتُ إلى الطالبات ويبدأ الدرس، حينما يتجه نظري إليها أراها سارحةً في، حركاتها هذه تجعلني أنسى كلَّ شيء لثواني، أعود لأكرر نفس الخطوات وأبدأ من جديد، أفكر في بعض الأحيان هل هي المراهقة التي تحب مدرسها؟. أم أنني أتخيل فقط.. لا يبدو على أحلام أنها مراهقة، وإنما عقلها أكبر من سنها، هذا ما يبدو عليه كل هذه المدة من متابعتها، ليست كباقي فتيات

فصلها.. تختلف عنهم جميعاً فعلاً، أسلوبها في الكلام.. حركاتها المرتكزة.. لا شيء يدعو إلى أنها مراهقة أبداً؛ في ذلك المساء عدت إلى المنزل، انزويت في غرفتي، أمسكتُ كتاباً لاقرأ كي أنسى ما يجول بخاطري من أمورٍ لا أريد لها أن تتخذ حيزاً أكبر في عقلي، لأنها لن تنتهي نهاية جميلة بانتهاء هذه السنة، لا أريد أن أعطي لنفسي أملاً ولا أن أعطي لغيري أملاً، أريد أن اكتفي بالأحلام، وحتى هذه علي مقاومتها، كتابي الذي اقرأه زادني شوقاً، فقد كنت اقرأ للقباني، وقعت عيني على قصيدة.. (رسالة حب قصيرة)

جلست على الكرسي أفكر في القصيدة.. أفكر بأحلام.. حاولت أن اطردها من تفكيري.. لكن بدون جدوى.. فقررت أن أكتب ما أحسه على الأوراق.. أفضل طريقة لسكب مشاعري.. هو قلمي وورقتي.. فكتبت

حبيبتي.. أثمل نبضنا ونحن نترامى الخطى وعلى الأفق نسير
من أيَّ صوبٍ ستبدأ.. وتوجه سهام عشقك كي إليك اطير
ضمني بين ذراعيك أنت السجان وأنا الأسير
وكيف تخطف اليل من برودته.. وعيناك سرج منير
غداً إذا رانا الناس. فهموا قصة حبنا دون تفسير
نشد على الفراق وثاقنا.. وتزج في الارض الكسيحة المسير
فأنا هنا وهناك حيث تبسمت.. وتهت في المدى الخفاق الأثير
العطر قديس الحكايا.. لحن شفيف في صدى الأعماقِ غزير

قطفت كالمجنون أبحث.. ربما طيرٌ يحط بشرفة المشتاق

بالغيم بالضوء الشحيح.. بغيضه منتوفة.. بالجدول الرقراق

بالحق الاصفر.. بالبساتين التي أدمنتها.. يا حبة الدراق

بالشارع الزنجي.. بالليل الذي لا ينتهي.. بجرائم العشاق

بالحياة بالأشياء.. بالفوضى التي تريح في حبري وفي الأوراق

قصصت الورقة.. طويتها.. ووضعتها بين الأوراق في حقيبتي التي أضع فيها كل أغراضي التي احتاجها في المدرسة، ورقة خطيت فيها كلُّ شيء أحاول ان أخفيه، أفكر في نفسي هل ناقضت تفكيري بعد أن كتبت هذه الكلمات، هل من المعقول أني فعلاً أشعر اتجاهها بشيءٍ خاص يجعلني اتحرك منحرفاً خلف مشاعري، لا أريد أن افكر بشيءٍ ما وأفعل نقيضه.. لكن ما باليد حيلة، لن أفصح أبداً عن شعوري، لكن ليكن جزء مني معها، بعد أن انتهيت من المحاضرات كلها جلست في غرفة المدرسين أرتب بعض الخطط المدرسية.. فوقعت عيني على الورقة التي طويتها أمس ووضعتها في حقيبتي، اطلت النظر إليها ثم ناديت على إحدى الفتيات أخبرها أن ترسل خلف أحلام.. فأنا أريد مكالمتها؛ بعد عدة دقائق كانت أحلام واقفه أمامي، لا أعلم منذ متى، فلم تخبرني بقدومها، ولم تصدر أيَّ صوت كي انتبه لوجودها، لا أعلم ربما تكون خائفةً مني، مترددة بعض الشي ربما.. أم كانت تبدو لي أنها تراقبني من بعيد، ثم لابد أنها كسرت الجاجز المخيف الذي بيني وبينها حين طرقت الباب طرقاً خفيفاً، لعلها تفكر أن

أكون لا أسمع وتهرب مني، أكون أنا من يهرب منها، رفعتُ رأسي وجدتها أمامي أخبرتها أن تقترب وأعطيتها الورقة، كنت أريد أن يبقى شيئاً يخصني معها.. لقد تحججت بأنني أريد معرفة رأيها في هذه القصيدة.. بما أنها ملمة بالشعر والكلمات، أردت أن امتحن مستوى إدراكها، مستوى معرفتها بالشعر، أريد منها فقط أن تحتفظ بالقصيدة معها، لعلها فهمت أو لا، المهم أنها لها، ووضعتها بين يديها، ولا يهم الباقي من التفاصيل، بكلِّ تواضعٍ وتردد أخذت الورقة.. متحججة بالدروس والوقت الضيق، تحاول أن تفهمني.. أن تخبرني أنها لا تريد أن تدلي برأيها فيها، خوفاً من كلِّ شيءٍ حولها، لم اضغط عليها أبداً، لم يكن جلَّ أهتمامي ان تبدي رأيها فيها.. ولكن المهم أنها أخذتها..

مرت الأيام.. والعام الدراسي أوشك على الانتهاء، وانتهت معه معاناتي وضبط نفسي أمامها، نحن واقفون في مفترق الطرق، ستكمل حياتها الآن وتتفتح الأبواب أمامها، قد تنساني وأنا أرحل أعود من حيث أتيت، لكن وجهها سيرافقني إلى الأبد ودعتهم كأنني اودع قلبي معهم، نظراتها التي لا أنساها كأنها تقول لي أبقى، لا تذهب.. ذهبت.. على أمل أن نلتقي مجدداً؛ قد تكون حينها متخرجة من الجامعة، أو حتى طالبة جامعية، قد أكون وقتها أكثر شجاعة؛ واتقرب منها، عدت إلى المدرسة التي كنت فيها.، ثم بعدها حولوني إلى البصرة مرة أخرى، فاقتربت من عائلتي أكثر، لم استطع الذهاب إلى الموصل إلا بعد سنتين، أتذكر كل ليلة ذلك الوجه قبل أن أنام لعلي أبقي على ذاكرتي تلك

التفاصيل الجميلة، لا أعرف متى سأرها.. حين قدر لي أن أذهب إلى الموصل، ذهبت وأنا لست متاكداً أنني سألقاها، سألت عنها بطريقةٍ غير مباشرة، ألفتُ ألف حكايةٍ وحكاية كي أصل إلى خيطٍ فقط يساعدني على اكتشاف مكان تواجدها.. جامعتها.. المكان الذي تدرس فيه، أخذ مني البحث يومان كي لا أجلب الأنظار والشكوك نحوى، بعدها علمت أنها تدرس التاريخ، كيف انتهى بها الحال بدراسة التاريخ وهي تعشق اللغة العربية، ويوم عرفت مكانها لم أجدها، كانت متغيبة بسبب ما جهلته وقتها، وذهبت كل أمالي، وعدت خالي اليدين إلى أمي أخبرها كلَّ شيء، ردت علي وأنا واضعاً رأسي في حضنها..

- لو كانت لك ستبقى كذلك.. أنت فقط آمن أنها ستعود إليك... وسيؤمن القدر تقاطع طرقما حتماً.

كان هذا الكلام هو الضمادة الوحيدة التي كانت تهدئ لوعة قلبي واشتياقي الكبير لها.. يجب أن نسعى وراء الحب حيثما كان.. حتى لو كلفنا أياما وأسابيع من الإحباط والحزن.. لأنه منذ اللحظة التي ننطلق فيها سعياً وراء الحب.. ينطلق هو أيضاً لملاقاتنا (باولو كويلو).

(في مدينة كل ما فيها حضارة.. تنفست حبك.. تعاطيت لوعة العشق.. ارتشفت البعد في كاس الحب وخمر السعادة.. شعرت برغبة الإعتراف لك.. لكن كيف أعترف وأنا أتمادى في البعد كي أحميك.. أنت كالجمرة تذيب ما في من جليد.. يا سمائاً من اللطافة تمطر على قلبي العليل منذ سنين بحبك.. وأنا أحاول

أن أعود إليك.. أعانقك.. حتى لو بمخيلتي.. أعانق المسافات التي تبعدني عنك.. سأبقى انتظر ذلك اليوم وذلك القدر الذي سيجمعني بك..).. تهت مع الحياة والحياة تاهت بي.. في يوم كنت قد قدمت بطلب فيزا إلى إحدى الدول الأوربية.. من أجل مهرجان ثقافي في بعض الدول الأوربية.. كنت قد رشحت له.. وتعرفت حينها بشاب يعمل في ذلك المكتب.. وهو كان مكتب للمحاماة أيضاً.. كان يحمل نفس لقب عائلة أحلام.. تسألت لو أنه هو نفسه.. هل من الممكن أن الحياة دفعت بي أمام هذا الرجل.. فقط لأعرف رأس خيط عن مكانِ تواجد أحلام أو أين هي الآن.. كيف اسأل عليها.. بأيَّ حجةٍ اسأل عنها... فكرت وأنا انتظر أن تكتمل الأوراق... ثم تذكرت إن كان لأحلام أخ.. لقد تذكرت هذه الحادثة عندما كنا في يومٍ قررنا فيه أن لا ندرس.. وإنما نتكلم عن عائلاتنا كنوع من التغير وتعمق العلاقة بين الأستاذ والطالب.. وقتها طبعاً حفظت كلَّ شيء قالته أحلام عن عائلتها.. إن الحياة شيء غريب لا يحدث شيء بدون سبب.. تذكرت حينها أخوها طارق؛ فسألت عنه من الشاب.. وبدأ الأمر كأنه أكثر من صدفة، الشاب هو ابن عم طارق وأحلام.. وبدأ طيباً جداً، فقط تكلم بكلَّ اريحية.. وعلمت منه أنها هنا في بغداد، تعيش منذ سقوط مدينة الموصل بأيدي الأرهابيين المجرمين.. وحكا لي أن أخاها قد سافر؛ ووالدتها توفيت، وما أصابهم من جراء داعش.. خرجت من المكتب رفعت رأسي إلى السماء.. شكرت الله على كلَّ شيء.. ماذا من الممكن أن أكون قد فعلت صالحاً

حتى يكافئني الله على كلَّ هذا.. لم أصدق نفسي وقتها، ففعلت المستحيل كي انتقل إلى جامعة بغداد، إلى نفس الجامعة التي تعمل فيها هي، ولم يكن بالأمر الصعب.. فقد رشحوني لأكثر من مرة؛ أن أدرس هناك.. لكن كنت اعتذر دائماً؛ أما الآن فقد أتيحت لي الفرصة التي أريد، سأعمل بالقرب من أحلام.. لقد صدقت أمي حين قالت أن كلَّ الأحلام ممكن أن تتحقق لو آمنت بها وصممت على المطالبة بها دوماً، أكملت أوراقي قبل السفر إلى الدولة التي يجب أن يقام فيها المهرجان الثقافي الذي أنا مدعو إليه كي أمثل بلدي كأحد أعضاء البعثة، طلبت من أمي أن تستأجر لنا منزلاً في بغداد، وقد ساعدها أخوتي بالبحث والاستقرار حال عودتي من أوروبا.. ذهبت لأوروبا.. كانت من أجمل الرحلات التي قمت بها على الاطلاق.. وانتهى كلَّ شيء على خير.. لكن دائماً كنت أفكر بالمشهد الذي سيجمعني بها، كيف كنت سأتصرف وأفكر، ما الذي سأقوله لها، هناك الكثير، لكن اعتقد أنني لن أقول شيئاً، أنا أعرف نفسي سوف اتجمد أمامها، لها هالةٌ غريبةٌ تجعل الكلام يذوب بالحلق قبل أن يترجم إلى كلمات، بعدعودتي من أوروبا، ذهبت إلى الجامعة واستلمت وظيفتي، تعرفت على الأساتذة على المرحلة التي سأقوم بتدريسها، لكنني لم أبحث عن أحلام، لا أعلم لماذا فقط، لأنني لم أرد أن أقوم بمفاجأتها، هكذا أردت أن يبدو كلَّ شيء كصدفة، أخبروني زملائي بوجود أمسيةٍ أدبية تقام كل سنة في بداية الفصل الثاني من الدراسة، ولابد أن أحضر إليها، ودعوني إلى إلقاء إحدى القصائد، بصراحة تحمست جداً، لأني لو

كنت أعرف أحلام ولو قليلاً، كنت سأخمن تواجدها في هكذا أماكن، لأنني أعرف كم تحب اللغ العربية والأدب ككلَّ، انضممت إلى هذه الأمسية والجلسةِ الأدبية، وحينما أتى دوري بإلقاء القصيد وبينما اصعد إلى المسرح وقعت عيناي عليها، كنت أبحث عنها ووجدتها، لقد كانت هي حقاً.. القيت قصيدتي وأفكاري كلها تتجه نحوها.. لم تتغير كثيراً.. الظفائر اختفت، وحل محلها الشعر المنسدل على أكتافها، جلستها، واثقةٌ جداً من نفسها كما كانت ولازالت، عيناها التي تطوفان في المكان وتنظران حولي لعلها تعرفت علي، لابد أنها تعرفت علي هناك بابتسامة خافتة مدهشة على شفتيها، كأنها تؤكد لي أنها تعرفت علي، رغم أنني قد تغيرت قليلاً.. اللحية قد طالت.. والشعر الأشيبُ قد نبت في بعض الخصلات من شعري،

أفقٌ يذوب على الحنين، يكاد يَغرقُ في صفائه،
يطويه ظلٌ من جناحٍ ضاع فيه صدى غنائه
أهدابُكِ السوداء تحملني فأوُمِضُ في انطفائه

(بدر شاكر السياب)

لا أعلم كم من الوقت استغرقت في إلقاء القصيدة كأنها دهرٌ، أردتُ من الزمن أن يتحرك بسرعة كي ينتهي كلَّ شيء، والتقي بها، أريد اللقاء أن يتم.. واقفة هناك تبدو كأنها مشغولة.. بعد أن انتهى كلَّ شيء، تتحاور مع أحد الزملاء، تقف بشموخ وشعرها الذي يتحرك يميناً ويساراً مع حركات جسدها،

كل تفاصيلها رائعة، نظرت إليها أومئت برأسي أقابلها بتحية، تقدمت إليَّ بعد أن اعتذرت ممن كانت تقف معهم، وهي تحاول أن تذكرني بنفسها، وهل نسيتها يوماً، لم تعلم فقط ماذا فعلتُ كي التقي بها، كم ليلةٍ قضيتها وأنا احاول أن ارسم وجهها بكلماتي.. بقصائدي؛ كي اتبقى على تفاصيلها بين سطور كتاباتي، التقينا والتقت أحلامنا، مشاعرنا، أحاسيسنا، لابد أنها تحس بنفس الشعور الذي يعتليني، أنا لا اخطأ عادةً بفهم الناس، عيناها تقفز فرحاً لرؤيتي، لابد أن قلبها يدق بسرعة كما يحدث لي تماماً، حييتها.. أخبرتها أنني سعيدٌ برؤيتها.. هل السعادة كافية كي تترجم ما أشعر به؛ إنني أطير.. أحلق.. كل خليةٍ في عقلي تصرخ باسمها..

أحاول أن أسكت كلَّ الأصوات التي تتكلم برأسي كي أقول لها شيئاً ما؛ لكن عوضاً عن هذا اصمت وأتركها وانسحب، لو أنني بقيت لحظةً أخرى لطوقتها بذراعي أمام كلَّ الناس، والتقيتها في اليوم الثاني وكان لقائنا أشبه بعودة كل السنين التي غادرتني بدونها، بدأت هادئة متزنة كما كانت، ولكنها الآن أجمل، جلست أكلمها وأحدثها عن كل شيء.. أردت أن أخبرها كلَّ شيء، فسردتُ لها كل ما حدث في تلك السنين مختصراً.. كي لا أثقل عليها بكلامي، حدثتها عن عادات وتقاليد بعض المدن التي عملت فيها.. عن الناس هناك والقرى، يوجد في العراق الكثير من الثقافات والعادات.. تختلفُ من مكانٍ لأخر.. رغم هذا التعدد الكبير فالمواطن العراقي يتسم بطبعٍ يجتمع فيه كل العراقين.. الطيبة.. الغيرة

والشجاعة، فأيُّ مدينةٍ كنت انتقل إليها أرى الترحاب والمودة والمحبة.. فقط لأنني غريبٌ من مدينة أخرى، أرى مثلاً النساء الكبيرات بالعمر يعتبروني كأحد ابنائهم، وكلامهن المعسول يجعلني أحس أن الجميع كأمي، الشباب يعاملوني كأنني أخٌ لهم أو صديق، لا أحس أبداً بغربتي عن أهلي وأصدقائي، فالعوائل العراقية حين يحل ضيفاً عليهم يعاملونك كأنك واحد من أفراد عائلاتهم وليس ضيفاً أبداً؛ أنا اتكلم وهي مستمعةٌ لا تتكلم، وإنما تبتسم لي فقط، اعتذرت منها لأنني تكلمتُ كثيراً، فأجابتني (أحب أن أعرف كلَّ شيء عنك.. وعن المدن التي زرتها).. لكن الوقت قد فات.. فنهضت مسرعةً لتعود إلى منزلها، ونسيت أن أطلب منها رقم هاتفها، لأنني كنت حتماً ساتصل بها، بعد أن وجدتها، لا شيء سيقف بطريقي الآن، لكن ترددت بعض الشيء أيضاً، لعلها لا تريد أعطائي رقم هاتفها، لم افكر حتى أنها قد تكون مرتبطةٌ أو لا، كانت أخبرتني لو أن هناك شيئاً ما، حينما تحدثت بعض الشيء عن عائلتها.

عدت إلى منزلي وأنا سعيدٌ جداً، أكملت ما كان لي من أعمالٍ وبحوث، أخذت حاسوبي كي أتصفحه قليلاً. حاولت البحث عنها. لابد أن لديها صفحةٌ على الانترنت، لأجدها على الفيسبوك، كنت قد بحثت عنها منذ فترة لم يكن لها أيُّ حساب، هل من الممكن أن يكون الآن؛ يا لحظي الذي أصبح جيداً بالفترة الأخيرة، لم أفكر أصلاً، طلبت بالفعل صداقتها، ثم ارسلت لها رسالة أيضاً أخبرها أنه أنا، طال الوقت حتى أجابتني، بماذا تفكر يا ترى، هل من المعقول أنها

لم تراها.. إنه سوالٌ بسيطٌ قد أرسلته لها (كيف الحال؟) هل يحتاج كلَّ هذا الوقت كي تجيب عليه، الكثيرُ من الاسئلة تجوبُ مخيلتي من أجل رسالةٍ واحدة، وأنا انتظر الرد، مثلما انتظرت كلَّ هذه السنين، الرد على رسالتي وهي موجودة أصعب بكثير من انتظارها ولا أعلم أيَّ شيءٍ عنها، لقد صبرتُ كل هذه السنين وحان وقت قطف ثمار الحب الذي صبرت من أجله، أليس من حقي هذا، أليس من حقي أن تجيب، تمرُ الثواني كأنها ساعات، ها قد ردت، لقد أرسلت لي الجواب، إنها تستجوبني، كيف عرفت صفحتها على الفيسبوك؛ كم هي ساذجة، ألا تعرف أنه من السهولة جداً الوصول إلى أيَّ شخصٍ عن طريق الانترنت لو وجد له صفحةٌ عليه.. لكن هذا لايهم..

المهم أنها أرسلت، وعدت راسلتها مرة أخرى ومن إحدى هذه الرسائل طلبت رقم هاتفها، فارسلته، في بعض الأحيان أفكر أنني جننت.. لم أكن هكذا.. أنني استعجل الساعات.. الدقائق.. الثواني.. حتى الأيام.. لا أعلم كيف استطعت مقاومة كل الوقت الذي فات بدون أن أعرف أيَّ شيءٍ عنها.. كيف قاومتُ كلَّ الأيام التي مضت من دونها؛ ماذا لو كانت متزوجة.. مسافرة.. مهاجرة.. ماذا لو كانت أصلاً لا تكن لي أيَّ مشاعر كما أكن لها.. من الممكن أن يكون كل شيءٍ من مخيلتي مثلاً، بالرغم من كلَّ شيء لازلت أثق بالقدر وبنظرتي للناس، نظراتها لي اليوم والأمس تؤكد لي أن ما أشعر به اتجاهها هي تشعره أيضاً.. لازالت نفس نظراتها لي حينما كانت طالبة، نظرات شوقٍ ولهفة.. لازالت

لا أعرف ماهو رأيها بالقصيدة التي كتبتها وأعطيتها إياها، هل من المعقول أن تكون قد احتفظت بها لحد الآن، إلا إذا فعلاً كانت فإن حظي قد وقع من السماء إذاً، احتاج الآن أن تختفي الساعات.. أن يحل الصباح من أجل لقاءٍ أخر.. كان الوقت يعاندني ولا يتحرك، كأنه يعذبني أكثر، الوقت صديقي لسنين.. هل أخون صداقته من أجل عدة ساعات أخرى.. استطيع أن أصبر.. فالحب حالة يجب أن لا تعيشه بسرعة، يحتاج للوقت ليثبت، يحتاج للوقت لينضج، يحتاج للوقت كي يكتمل، لكنه مكتملٌ منذ أول نظرة كان قد أكتمل.. حاربت كلَّ مشاعري وتركتها للوقت كي تكتملُ.. لكنني لم أعرف أنها كانت متكاملةٌ أصلاً.. إذاً لابد أنها قد وصلت إلى حدها.. لاتحتاج سوى أن تظهر إلى العلن حتى ينقطع الشك باليقين؛ قابلتها في اليوم الثاني.. وازدادت مقابلاتي لها بحجة أو بغير حجة، أخذتها إلى أقرب مكتبةٍ إلى قلبي.. أتردد عليها كثيراً. أريدها أن تشاركني كلَّ شيء منذ هذه اللحظة..

بقيت صامتاً معظم الوقت؛ الصمت الذي يلفنا، كأن الأنفاس هي التي تتحدث بدلاً عنا. كأن العيون هي التي تقول كلَّ الكلام، ولا أريد الكلام. لا استطيع الكلام في حضرتها، إنها كقطبي المغناطيس الذي يشد كلَّ شيءٍ إليه ويتنافر عند القطبين المتشابهين، ونحن نتنافر عند الكلام، نعجبُ بالصمت أكثر، فالكلام ليس غايتنا، وإنما الإطالة بالسكوت.. لكنني أجيد الحديث تماماً.. وما همني بالحديث؛ فالصمت في حرم الجمالِ جمالٌ (القباني) لم أرد أن تبتعد عني..

لقائاتنا كلها رائعة.. هناك الكثير كي أقوله لها؛ ولا استطيع البوح به، لقد أكتشفت شيئا مهماً عن نفسي، أنني أمام من أحب أخرس، شخصيتان تستحوذان في جسدي، الشاعر المتكلم ذو الأسلوب الرائع، والعاشق الصامت الذي ينذر صوته للحبيب، لم أرد أن تفكر أنني جبانٌ أو شيءٌ من هذا القبيل.. لكنني أتلعثمُ أمام عينيها.. إن لعنة الحب أصابتني.. انتهزت فرصة مكالمتها على الهاتف؛ ولأن ما يقال عبر الهاتف أسهل، بحت لها بكل مافي خاطري، أيُّ علمٍ هذا الذي لم يستطع إلى حتى الآن أن يضع أصواتٍ من نحبهم في قراص أو زجاجة دواء نتناولها سراً عندما نصاب بوكعة عاطفية بدون أن يدري صاحبها كم نحن نحتاجه (أحلام مستغانمي)

كان الصمت من جهتها سيد الموقف.. هل وافقت على ماقلت.. ربما، أو أنها تريد سماع الكثير، رويت لها كيف انتظرتها سنين دون أن أعرف أيَّ شيء عنها، رويت لها كيف تعرفت على أحد أقربائها، وكيف حكت قصصاً لأصل إليكِ، أفصحت لها عن مشاعري واعتقد هي أيضاً تكن لي نفس المشاعر، أنني أكاد أرى الابتسامة على شفتيها من خلف سماعة الهاتف.. أرى تلك النظرات.. نفس الأفكار.. نحن مخلوقان لبعض.. لابد أن نكون قد خلقنا لبعض، حتى القدر نفسه حفظنا من أجل بعض، لما لا.. فأنا أريدها أريدها بشدة.. يالله.. نحن حبيبين.. نعم لقد أصبحنا حبيبين.. بعد صمتٍ طويل.. وحديثٍ طويل.. اتفقنا منذ زمن طويلٍ أيضاً.. ليس اليوم، أو في هذه الساعة، من كان يحلم بالسماء فأنني

في قلب إنسان، وجدت سمائي ليس الجمال هو الجمال بذاته، الحسن يوجد حين يوجد راء (إليلياء ابو ماضي).

كنت أعمل على بحث يربط التاريخ بالشعر.. وكانت هي أحد الأساتذة الذين أعمل معهم، كنا أربعة.. لأننا إذا جلسنا وحدنا نكون وكأننا نعمل، لا أريد لها الأذى أبداً، إنني أغارُ، أغارُ جداً، تعذبني كلما رأيتها تقف مع أحد الطلبة أو حتى الأساتذة، لكنني أثق فيها بالطبع، الثقة أهم صفة وأكثر صفة يجب أن تتصف بها العلاقة بين الأثنين، فالشك يقتل صاحبه ويدمر أيَّ علاقةٍ بين أثنين، إن لم تثق بحبك وحبيبك فسوف تجلب له المتاعب وتأذيه بالغيرة التي ستنقلب إلى شكٍ يأكل قلبك وروحك، فيجب علينا أن نفهم الغيرة بسبب الحب او الشك بسبب مرضٍ ما، إنما غيرتي فهي بسبب حبي، لا أريدها أن تبتسم لغيري، أو تنظر لغيري، لست متملكاً بل عاشقاً، عاشقاً مجنون، أحبها وعاندت الحياة وأعادها القدر لي.. أذكر أن لي صديقاً تزوج من المرأة التي يحبها لكن كانت عيناه دائماً تبحثان عن حبٍ أخر، وحينما أكتشفت زوجته خيانته طلبت الطلاق وكل محاولاته بأن يعيدها إليه بائت بالفشل، لأنها لم تعد تثق به، هذا ما يفعله الشك فينا والحب، لأن الحب يجب أن يكون من أجل قلبٍ واحد، وإنسانٍ واحد ويبنى على الثقة والأمانة، فقلبُ الحبيب أمانةٌ عند حبيبه.. كيف يستطيع الإنسان الزواج بأكثر من واحدة، لابد أن قلبه يحب إحداهن أكثر من الباقي، ما أكثر الذكور في حياتنا وما أقل الرجال، الأيامُ تمضي والوقت يمر وهو شاهدٌ على

حبي.. حب اسطوري.. كأنها إحدى الروايات الرومانسية، وأنا أريدها الآن أكثر من ذي قبل، لكنها لم تتكلم أبداً عن الزواج، ولم أقل شيئاً أنا، هل من المعقول أنها لا تريد الزواج.. ومن لا يريد الزواج وتكوين أسرة وأطفال إذا أراد الله، قد يكون صبري كل تلك السنين هي ما جعلتني أستعجل بالزواج الآن..

يقول (اوسكار وايلد).. "ينبغي على المرء الذي يكون عاشقاً على الدوام كي يتزوج"..

وأنا عاشقٌ على الدوام وأحبُ أحلام، فقط احتاج إلى الزواج كي أقع في حبها أكثر، أراها كلَّ صباحٍ حينما استيقظ.. وابتسامتها الساحرة، وصوت ضحكاتها.. كأنها طفلة داخل امرأة، رغم اتزانها العالي، لكنها لازالت طفلة متمردة جميلة مغامرة عفوية، كلمت أمي أصلاً بالموضوع وهي تنتظر مني تحديد موعدٍ للخطبة، وأنا لحد الآن لم أفاتح أحلام بالأمر، استعديت في صباح أحد الأيام كي أخبرها بقراري في خطبتها.. وتفاجأني هي بخبر سفرتها إلى الأردن وتقديمها الفيزا أيضاً.. ولم تخبرني بشيء أبداً. علاقتنا مبنية على الصدق وعدم إخفاء الأمور على بعضنا البعض خلال الأشهر التي مضت؛ لماذا لم تخبرني بأيَّ شي، كنت قلقاً عليها ذلك اليوم، لأنها تأخرت في قدومها إلى الجامعة، اتصلت بها لم تجبني، ثم بعدها أرسلت لي رسالة تقول فيها أنها ستخبرني شيئاً ما حينما نتقابل، لم أعلم ماذا أقول.. لقد تضايقت حقاً لأنها لم تصارحني، لم تعتبر وجودي بحياتها وهي اتهمتني أنني مثل الأشخاص الذين يتحكمون بحياة أحبائهم، ولكنني فقط

أردت منها إشراكي بكلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في حياتها، لأنها حياتي هي أيضاً، نهضتُ لم أقل أيَّ شيء.. حزنت بسبب فكرتها عن الرجال؛ وخاصةً أنها اعتبرتني واحداً من اولئك المتملكين المتشددين، إنه ليس شيئاً غريباً أو خاطئ، الرجال دائماً يعتبرون رأس المرأة.. لكن، بحدودٍ طبعاً، يحتاج أن يشعر دائماً أن حبيبته بحاجته.. وأنها تشاركه كل شيء، كما أن الرجل يعتبر المرأة ظله الذي يمشي بجانبه وليس خلفه.. المرأة هي السند الحقيقي للرجل.. والرجل هو الجبل الذي تستند عليه المرأة، من الممكن أن نخطأ في حق بعضنا البعض بسبب غباء الحب، أو أن نسيئ فهم بعضنا، لكن هناك شيء واحدٌ نتفقُ عليه.. وهو حريتنا، يجب على كل منا أن يتحدد بمساحة مخصصة له من الحرية يشعر أنها ملكه هو فقط؛ لأن الحرية هي ما يجب أن يملكها الإنسان بدون شرط أو حكم، بقيت يومان كاملان لا استطيع مكالمتها، حاولت أن أهدى نفسي قبل أن أقوم بعملٍ أو كلامٍ مجنون يبعدها عني، لم أرد التحدث.. فقط الإبتعاد.. إنها استراتيجية استخدمها كثيراً كي لا أجرح أحد ما أحبه، حينما أكون غاضباً أو منزعجاً من شيءٍ ما، كما أنني أردت أن أختبرها.. أختبر حبها لي.. هل من الممكن أن لا تهتم ببعدي؟. أم أنها ستكلمني وتطلب محادثتي، وأيضاً كنت مشغولاً بتحضير الفيزا إلى الأردن، نعم لقد ذهبت فوراً وقدمت أنا أيضاً، ستكون مفاجاة لها لو سارت الأمور على ما يرام، سأجعلها تعيش أجمل أيام حياتها وهي بقربي، كنت قد زرت الأردن من قبل، إنها بلدٌ جميل ومرحاب..

لا يزال فيه الكثير من العادات والتقاليد القديمة الجميلة في البلد، أعرف كل الأماكن التاريخية تقريباً.، لقد زرتها من قبل.. وأنا أعلم أن أحلام ستكون سعيدة جداً لزيارتها بعض تلك الأماكن.. كانت أحلامها أن تسافر إلى كل العوالم.. أن ترى كل المدن التاريخية، كل الأثار التي لازالت قائمة إلى هذا اليوم، تريد أن ترى الماضي بعين الحاضر، كلمتني بعد يومين، يومين كاملين.، ما أن ظهر اسمها على شاشة هاتفي حتى رددت بسرعة.. أحسست أنها متخوفةٌ من نبرة صوتها، لابد أنها اعتقدت أنني لن أرد عليها، لم تعلم أن قلبي قفز مع رنة الهاتف.. طمئنتها أنني لم أعد غاضباً.. وكنت فعلاً مشغولاً بأمورٍعدة.. لهذا لم أرها ولم أكلمها كلَّ هذا الوقت.. ارتاحت قليلاً رغم ترددها بسؤالي مرةً أخرى إن كنت فعلاً غضبت أو لا، لكنني سألتها أن التقيها في اليوم التالي وأخذها إلى المكتبة التي اعتدنا الذهاب إليها.. ووافقت، في اليوم التالي ذهبنا إلى المكتبة.. جلسنا قليلاً.. تحدثنا.. تصافت القلوب وعادت كما كانت وأكثر.. ثم بعد مدةٍ قليلة، أخبرتها أنه يجب أن التقي بوالدها كي أتعرف عليه.. وأن نأتي لخطبتك قريباً جداً.. ولو حبذا بعد عودتك من الأردن.. لأن أمي تنتظر هذا اليوم.. وقد اخبرتها كل شيء.. وهي تنتظر رؤية هذا اليوم، كانت تنظر إليَّ بدون أن تقول أيّ شيء ثم ردت عليَّ.. أتوقع أن تكون بهذه السرعة، أجبتها أننا نعرف بعضنا منذ زمن.. وعلاقتنا ابتدأت منذ أشهر تكفي كي نضع لها اسماً.. كما أنني لست من اولئك الرجال الذين يتسلون.. إنني أحبك وأريد أن أتوج حبنا بالزواج، فكري

بالأمر بجدية، وفكري متى ستخبرين والدك بأمرنا، وسنحل كل شيء بعد عودتك من سفرك؛ سافرت أحلام.. وسافر قلبي معها.. كان بعدها يقبض على قلبي.. كأني لم أعد قادراً على التنفس، أحس أن الهواء ينفذ من رئتي، أحس أن السماء تنطبق على الأرض فتنطبق على صدري، أصبحت غريباً في وطني ببعدها... كم من المرات أحسست بغربة وأنا في بلدي.. وخاصةً بعد أحداث ٢٠٠٣..

رغم أن الناس الطيبة لازالت متواجدة؛ لكنها قلة، لقد ظهرت فئات من الناس تستغل كل شيء، الدين.. المذهب.. الحالة الاجتماعية.. حتى الأسماء لم تسلم منهم، لا سيما الصراعات الدينية التي راح ضحيتها الكثير لحد الآن، لم نعد نشعر أننا في وطنٍ.. كأننا انتشلنا منه واحتل من قبل أغراب يعتقدون أنهم يملكون هذا البلد، لكن بتواجد أحلام أحس أن وطني هو قلبها، كل شيء يصبح أجمل بوجودها، لم انتظر كثيراً بعد أن أخبرني مكتب السفريات عن وصول الفيزا، حجزت.. لم أخبر أحلام أي شيء.. بعدها بأيام سافرت هي.، وكان من المقرر أن أسافر بعدها بأيامٍ أيضاً.. أفكر فيها في كل الأوقات، السنة الدراسية كانت قد انتهت ولي الكثير من الوقت الذي أخصصه لها، وصلت للأردن بنفس اليوم الذي أقيم فيه عرس صديقتها ريتا.. لم أخبرها أنني هنا لكي لا تنشغل بي، فتركت الأمر لليوم الثاني، أرسل لها رسالة.. حينها خرجت من الفندق اتمشي.. أرسلت لي الجواب وهي تقول أنها بالمدرج الروماني في وسط البلد؛ إنه قريبٌ

جداً إذا أخذت تاكسي أصل بغضون عشرة دقائق، جعلتها تتكلم كثيراً بعد أن هاتفتها، بدأت اسألها الكثير من الاسئلة.. وهي تجيب حتى تبقى هناك وأذهب إليها كي افاجأها.، وفعلاً وصلت وهي لازالت هناك، أخبرتها أن تأتي إلى الساحة الأمامية، خرجت وحين رأيتها، لم أشعر بأيَّ شيء حولي، كأنها الجاذبية التي تثبت كل شيء في مكانه، كأنها الشمس التي تدور حولها الكواكب؛ لا إراديا فتحت ذراعي كي أستقبل كل طاقة الكون المترجمة فيها.. أعلي احتضانها.. والأنصهار فيها.. كما أنني لا اعتقد أنها فكرت بما فعلته، ركضت نحوي عانقتني، لا اعلم كم من الوقت.. كان الزمان قد توقف عند لحظةٍ ما، بصراحة فاجأتني.. لم أتوقع منها شيئاً كهذا.. لم تصدق نفسها.. لقد كررت هذه الجملة مراراً، ثم بعد وقتٍ ما، ابتعدت عني، حينما ادركت أنها تحتضن رجلاً في زحمة من الناس وسط الشارع، بصراحة لم أعلم ماذا أفعل أنا أيضاً، كل ما كان يجول في خاطري أن استنشق عطرها.. أن المس جسدها.. أن أحس برعشة قلبها.. فما كان هناك أجمل من هذا اللقاء، لقد زرت الأردن من قبل، ولكن بوجود أحلام، الآن السفر له طعمٌ مغاير، سأخذها إلى الأماكن التي تريد أن تزورها.. على الأقل.. أن نقوم معاً برحلة واحدة فقط، قضينا وقتاً جميلاً ذلك اليوم.. واتفقنا أن نذهب سوياً إلى البتراء، كانت كثيرة الحلم، تحلم بكل شيء، تتخيل كيف كان الماضي، تغمض عينيها وترحل إلى الماضي، أحس في بعض الأحيان أنها تنتقل فعلياً إلى هناك، تتخيل ملابسهم، طريقة عيشهم، أعمالهم.. كيف يقضون أوقاتهم.. كيف

يعشقون.. ما الذي يفرحهم ويحزنهم.. كيف يتقابلون مع أحبائهم.. وو وو... كانت تهرب من الواقع إلى الكتب، حتى أنها كانت تعشق بطل رواياتها، كما عشقت خالد بن طوبال، ولعلها أحبتني لأننا نتقاسم نفس الاسم، حتى إنني

أغارُ منه قليلاً، ولو أنها أخبرتني أنها تحبني أكثر.. لكن لاباس بأن أغار، أغار من خالد بن طوبال.. من إحسان عبد القدوس لانها تعشق رواياته.. حتى أنني أغار من أحلام مستغانمي لأنها دائماً تتكلم عنها.. بين كل حبيبين.. هناك دائماً طرفٌ يحب.. والطرف الآخر يلتقيان. هذه حقيقة مرة، نحس بها ولكننا نتجاهلها ولكن أحياناً وفى حالات نادرة يوجد حبيبان.. كل منهما يحب.. وكل منهما يتلقى الحب وهذا هو {{ الحب الخالد }}_إحسان عبد القدوسس ذهبنا إلى البتراء.. لم تكن ترمش عينيها كي لا تفوتها لحظة من المناظر التي كانت تراها.. أعجبت جداً بشخصيتها الطفولية أكثر، لأنها كانت تستكشف كل ما حولها.. وتسأل الكثير من الاسئلة، كنتُ سعيداً لسعادتها؛ وأنا استغليت هذا الأمر.. بقيت ممسكاً بيدها طوال الوقت، ليس خوفا أن تضيع مني، لكن خوفاً لأن أضيع منها، تلمس الأحجار.. تدور حول المكان كما تدور الفراشات حول النار الملتهبة.. تضع أذنها بعض الأحيان على الصخور كانها تسمع أصواتاً لا أحد يسمعها غيرها، كأن الصخور تتحدث إليها.. تنقل لها أخبار الماضي.. والحكايات التي جرت في هذه الأماكن.. تعرفنا على زوجين مغامرين مثلنا، وأكملنا باقية السفر سوياً (أحلام) كانت أسعد امرأة رأيتها في حياتي ذلك اليوم، لم تكن

رحلتي طويلةٌ جداً، أردت رؤيتها قبل أن أرحل، لأني لم أراها منذ عودتنا من البتراء، ترجيتها طويلاً كي نلتقي، لكنها أخبرتني أن خروجي الكثير يجعل والدي يشك ويتسأل، ولكنني الححتُ عليها، فأخبرتني أنها ستحاول؛ بعد ساعة أتت، كانت قد اتفقت على الخروج مع ريتا بحجة شراء شيءٍ ما، وأتت إلى الفندق الذي نزلت فيه، جلسنا في البهو، طلبت لها القهوة.. وبعد أن انتهت.. رجيتها أن تصعد إلى غرفتي؛ فقط لأحس أنني معها على انفراد.. ترددت بالبداية لأنها كانت لوحدها، فقط اتفقت مع ريتا أن تلتقيها بعد ساعة، وأنا أريد أن استغل كل دقيقة من هذه الساعة، وافقت، أخذتها إلى غرفتي.. أردت أن اجرب شعور البقاء لوحدي معها في أيَّ مكان، وعدتها أن التزم بأخلاقي.. ما كنت سأفعل أيَّ شيء مشين، طبعاً لا، دخلنا، أغلقت الباب خلفي، حينها شعرت بشئ يتسلل إلى داخل ذراعي ورجلي كأنه أصابني الشلل.. وابتلعت لساني.. لم يبقى غير عيني التي ترى أحلام.. تزين غرفتي، أصبح قلبي يدق بسرعةٍ، كأنني سأصاب بنوبةٍ قلبية.. تنفستُ بسرعةٍ.. حتى أنها تنبهت على ردة فعلي.. بعد أن هدأت قليلاً.. تقدمت إليها رفعت إحدى خصيلات شعرها.. لمست خديها.. أحتظنت وجهها.. وبدون أي ترددٍ قبلتُ شفتيها.. لا أعرف كيف تصرفت هكذا بعد أن وعدتها؛ تبا لكل الوعودِ، إنها أمامي!. أيُّ وعدٍ استطيع الحفاظ عليه!. ابتعدتَ بخفة من أمامي واختفت.. بعد أن قلت لها.. يجب أن نحدد موعداً للخطبة بعد عودتك من الأردن.. ثم تلاشت من أمام انظاري.

الحب شي كهذا يأخذك حتى من نفسك.. لا تعرف ما الذي تفعله وكيف تفعله.. بجعلك ضائعٌ في بحارٍ لا تعرف بدايتها من نهايتها.. يجعلك تحلق في سماء لا حدود لها.. وأنك لازلت في البقعة نفسها من الأرض.. فيحدث معك كلَّ شيء غير متوقع في لحظات.. لا تتعدى الدقائق.. ولكنها تبدو كأعوامٍ وأزمنةٍ حيوية.. لقائنا هي اللعبة التي لعبها القدر علينا.. كل إنسان لا يستطيع التهرب من قدره أبداً.. ففي بعض الأحيان قد تحاول تحقيق كلَّ شيء.. ولكن يوجد شيءٍ ما أمامك يمنعك من التقدم.. وهذا هو قدرك ويجب عليك أن تتقبله.. أما في أحيانٍ أخرى قد تفشل في كلَّ شيء.. ثم يتصلح حالك فجأة.. وهذا ما يقدمه القدر لنا أيضاً.. بكل الأحوال سنتقبل أي شيء ونحمد الله ونشكره على كل شيء.. أنا علي يقين أن القدر لا يعطينا الزهور لوحدها بل الأشواكِ أيضاً.. عندما عدنا من الأردن وكنت كأني غبتُ أعواماً عن بغداد.. في ذلك الوقت كانت الأمورمضطربة قليلاً.. البلاد داخلة في معركة قائمة بين العصابات الارهابية والجيش العراقي.. شهورٌ وسنين ظلت الموصل وبعض المناطق في محافظاتٍ أخرى تحت هذا الظلم الاسود الذي سمي (داعش) تحت رايتهم السوداء يقتلون الأبرياء.. كم استبيحت من دماء.. وهجر أناسٌ من بيوتهم وقراهم.... كفرة بأعين المجاهدين الشياطين... عدنا لبغداد.. وعادت إلى أبي تلك الابتسامة الجميلة حينما يسمع عن بطولات جيشنا الباسل.. رغم بعض الحزن الذي يلفها

حينما يرى حجم الدمار الذي خلفه التنظيم بعد أن هزم هناك... أحياء كاملة مدمرة.. بيوتٍ هدمت على رأس سكانها.. أطفالٌ تحت الأنقاض.. نساء ترملت وأطفالٌ تيتمت.. فجرت البيوت والجوامع.. وبعض المستشفيات.. وأكثرهم قهراً.. أحرقت المكتبة الكبيرة في جامعة الموصل... تلك المكتبه التي ضمت الآلآف من الكتب على رفوفها.. واحسرتاه على تلك الكتب.. كم من الساعات كنا نجلس نتصفح فيها.. كم بحثاً قمنا بعمله بين زواياها.. كم من كتابٍ استعرناه من على رفوفها... جلست في إحدى الليالي بعد ان اغلقت كتاباً بين يدي كنت اقرأه لفيودور دوستويفسكي.. يقول فيه.. حين أفكر فيك فكأن بلسماً يمس روحي الموجعة.. رغم أني اتألم بك فإن تألمي هذا أعذب في نفسي.. نظرت إلى أبي وقلت له..

- بابا أريد أن أخبرك بشيءٍ هام وضروري.

- ماذا هناك يا بنيتي؟.

- لو تركتك يوماً ما، هل ستحزن؟

- أين ستذهبين؟

- يعني لو تزوجت.

نظر إلى بعينٍ تفضحان سؤالي.. وعلى وجهه ابتسامة يريد فيها معرفة الأمر الذي على ما يبدو قد فهمه..

- وأخيراً سوف تخبرينني عنه.

- عن ماذا... ماذا تقصد؟

- عن الذي يأخذ عقلك.. ويجعلك شاردة.. تضحكين للهواء.. وتبتسمين لكلَّ شيء.

- هل كنت أفعل هذا؟ ولكن أنت كيف عرفت؟

- وأكثر أخبريني.. من هو.

- لكنك لم تظهر أيَّ شيء.. يعني لم اعتقد أنك تعرف.

- يا ابنتي أنا والدك.. وأعرف كيف تفكرين.. وأعلم متي تفرحين ومتى تزعلين.. أحس لو كنت سعيدة أو متألمة.. ومنذ مدة وأحوالك متغيرة.. هل كنتِ تعتقدين أنني لن أفهم.. فقط لأنني لا اسألك.. بل لأني أثق فيكِ.. ولن تخيبي ظني.

_ وأنا لم أرد أن أُخيب ظنك.

- هيا أخبريني عنه.. لنرى من هو الذي قلب أحوالكِ.

- والآن هل تريد أن تعرف؟... قصدي هل أنت متأكد أنك تريد أن تعرف؟

- أنا متشوق جداً.. وكلِّ أذانٌ صاغية.

- إذاً أخبرك.. اسمه خالد.. أستاذ اللغة العربية في الجامعة.. لديه أخان متزوجان.. والده متوفى.. وأمه على قيد الحياة.. ويريد أن يقابلك في أقرب فرصة..

لقد أخبرته كل شيء بسرعة. ودفعةً واحدة لأنني خفت أن أتلعثمُ بالكلامِ أمامه من شدة خجلي.

– تمام، ليأتي متى ما يريد.. أنا بانتظاره.. أريد لكِ السعادة فقط.. وبما أنه أنتِ التي أخترتي.. فأنا أثق بخياراتكِ.

لم أرد على أبي بشيء سوى أنني احتضنته.. كلمت خالد تلك الليلة.. وأخبرته أن والدي وافق على رؤيتك.. وهو ينتظر مجيئك لمقابلته.. وفعلاً اتفقت أنا وهو على يوم الأربعاء بعد الظهر.. أتى خالد إلى منزلنا.. جلس هو ووالدي يتحدثون بعقلانية وتحضر.. قدمت لهم القهوة ثم الشاى.. وتبين لي أنهما متفقان جداً.. أنا أعرف خالد.. أسلوبه بالكلام ساحرٌ جداً لأنه لطيف ومؤدب.. كلما كنت انظر في عينيه.. أتذكر حادثة الفندق فأزيح نظري منه.. بعد أن انتهى تعارفهم وانتهى الإستجواب الذي تقدم به والدي وأجابه خالد بكل سلاسة.. قال..

– لقد تأكد أن ذكاء أحلام موروثاً عنك ياعمي.

– إنها دائماً ما كانت ذكية وهادئة.

أجبت بابتسامة

– هل انتقل الحديث إليَّ الآن.

– ومن لي أعز من ابنتي أن افتخر بها.

– إذاً بعد أذنك يا عمي.. سأذهب الآن وأتي في المرة المقبلة جالباً معي أمي

وأخي.. لكي نتفاهم على كل شيء.. ونطبق العادات في التقدم لخطبةٍ رسمية.

- أهلاً بكم في أي وقت.

- أركم عن قريب.. سأخبركِ متى نأتي.

- تمام

خرج خالد.. وأغلقتُ الباب.. لم اشعربالخجل من قبل أمام والدي.. كنت أحس بشعورٍ غريب.. أدرك والدي هذا الإحساس الذي يعتريني.. فلم يتكلم كثيراً بالأمر كي لا أخجل أكثر.. كنت أفكر أنهم سيأتون لخطبتي.. كيف سأتصرف.. ماذا ستكون رد فعل أمه حينما تراني.. أنا أعلم أنها سعيدة بخبر الخطوبه لأنه أخبرني بذلك.. ولكن لا أعرف ماذا سيكون رأيها في حينما تراني؟.. مئات الاسئلة تجول في ذهني.. لقد احتلت الأفكارعقلي تماماً.. سوف اغرق بينما أنا اتخبط للخلاص.. رن هاتفي بعد ساعتين.. رددت عليه كان صوت خالد يهمس (أحبك).. تغلغل صوته بين طبقات جلدي.. وأحسست بقشعريرة في كل جسدي.. صوت أنفاسه التي تداعب حاسة السمع عندي.. كأني اشعر بأنفاسه الدافئة قريبة من عنقي.. لا أعلم ماذا يحدث لي.. ماذا سأفعل لو كان بقربي الآن.. لو كنت احيطه بذراعي.. مالذي يحدث لي.. أخذت أفكر انني لابد قد جننت.. كل هذه المشاعر التي كانت مدفونةٌ في أعماقي أخرجها خالد خلال أشهر قليلة فقط.. اعادني إلى الحياة الحقيقية.. بعد ما كنت قد اختبأت بين صفحات الكتب.. أعاد كل شيء إليَّ بعد تلك القبلة التي قبلني إياها بالفندق.. فتح عيني على

آمال.. مشاعر.. أحلامٌ أخرى.. كانت أحلامي بسيطة.. أن يعود السلام إلى بلدي أن يشعر الإنسانُ أنه حرٌ غير مقيد.. كانت أحلامي بسيطةٌ.. أن يعيش الأطفال طفولتهم التي سُلبت منهم.. أن يتحقق الأمان وتبتعد صور العنف والقتل في كل مكانٍ.. كانت أحلامي بسيطة.. أن يتحقق العدل.. أن تزدهر الحياة.. أن يبنى بلدي من جديد.. يداً بيد نحو مستقبلٍ أفضل لكل الناس.. كانت أحلامي بسيطة.. أن تقدم لشعبي المنكوب درجات الحياة الكريمة من خدمات أساسية يعيش الفرد فيها حياة طبيعية خالية من الحرمان.. الضياع.. وخاصةً الأطفال المشردة التي هي بدون مأوى.. وو وو ولو تكلمت بعد لطال الكلام... أحلامي بسيطةٌ لدرجة أنها أصبحت من الصعب تحقيقها.. في ظل الظروف التي نعيشها حالياً.. الحب ليس تبادل مصلحة.. بل بالعكس هو العطاء والكثير من العطاء بدونِ أي انتظار للمقابل.. الحب يجعلك تفعل كل شيء وتفكر بكل شيء... يجعلك تبدو أحمقاً وفي بعض الأحيان لاترى سوى الحبيب وصورته في كل شيء... تراه في الشوارع.. في المقاهي في الحدائق وتشبهه بأي شيء أمامك.. قد تتذكر بعض خصاله في ممثلٍ ما.. أو أغنيةٍ ما.. يصبح كل شيء حولك قطعة من من تحب.. حتى نفسك تتغير إذا كنت مع من تحب.. أو كنت بدونه.. وهذا تماماً ما يحدث معي حين أكون مع خالد... أو اتكلم معه فأصبح لا أعرف نفسي ولم أعد اتعرف على أحلام.. فشخصيتي تغيرت تماماً منذ دخل إلى حياتي.. لذلك كلما تكلمت معه اشعر أنني انسى ذاتي.. انسى من حولي.. وانسى

نفسي.. وانسى كل ما يدور في فلكي... فقط أنا وهو.. صوتي وصوته.. كلماتي وكلماته.. صمتي وصمته.. شئونٌ صغيرةٌ تلف حكايتنا.. كلمة، نظرة، لمسة، حكاية.. تجعلني أعيش عليها يوماً كاملاً.. وأبقى اتذكرها لأيامٍ عديدة.. وتدخل في أحلامي فأعيش معه في عالمٍ أخر موازي لواقعي.. فأحس أنني أنا وهو لوحدنا في جزيرةٍ بعيدةٍ تلفنا الأحلام.. وتحيطنا الزهور من كل ناحية.. وخالد ينظر إليَّ فاتحاً ذراعيه كي يستقبلني كل مرة وبسمة على شفاهه وقبلةٍ من فمه.. ويحملني ليحلق بي.. ليخبرني أنني أنا لوحدي متربعةٌ على عرش قلبه.. كلما يرن الهاتف أطير مثل الحمامة كي أخذ من الوقت ثانيةً زيادة.. وعندما لا يكون هو المتصل أحس بمرض.. وانتظر صوته كي يشفيني.. إنه يحكي لي حكايةً كلَّ يومٍ حتى لا ينتهي الكلام.. كأننا نعيش ألف ليلةٍ وليلة.. ولكن عكس الصورة.. فشهريار من يحكي الحكاوي لشهرزاد.. استمع إلى صوته وصدري يعلو ويهبط مع نغمات كلماته.. ودقات قلبي تتناغم مع نبرات صوته.. حين نكون معاً.. أريد أن المس أصابعه التي يكتب بها.. المس شفتيه التي يتحدث فيها.. انظر مطولاً إلى عينيه كي لا أرى سواي فيها.. إن الحب يأخذني من نفسي.. ولم أعد أعرف نفسي.. يومُ الجمعةِ القادم.. حدد الموعد من أجل الخطبة.. أخبرنا عمي وزوجته كي يكونا موجودين في هذا اليوم أيضاً.. ذهبنا يوم الخميس مساءاً إلى السوق برفقة زوجة عمي.. اخترنا فستاناً بسيطاً مناسباً لهذا اليوم.. كانت زوجة عمي طيبة أحبتني مثل إحدى بناتها.. وكانت سعيدةً جداً أكثر من يوم خطبت فيها ابنتها... اشترينا

فستاناً طويلاً نوعاً ما.. لونه برغندي.. مصنوعٌ من الشيفون والستان.. كان أنيقاً وبسيطاً.. لم أكن من محبي الألوان البراقة أو المزخرفة.. لم اضع الكثير من مساحيق التجميل.. لست في العادة محبة لها.. لا أريد خداعَ أحدٍ بجمالي.. لم اخدع أحدٍ من قبل.. ولا أريد خداع أحد.. كما أن خالد رآني من دوم أي مساحيق تجميل وهذا يكفيني.. شعري ليس طويلاً كثيراً وليس قصيراً.. أحبه قصيراً لكن، والدي يرفض أن أقصه.. والآن أصبحو اثنين.. لأن خالد يحبه طويلاً أيضاً.. لقد اعددنا أنا وزوجة عمي بعض المعجنات والأكلات الخفيفة ليوم الجمعة.. أصر عمي أن نشتريها وأن لا نتعب أنفسنا.. لكنني أحببت أن أفعل كل شيء بيدي.. أريد أن ارفع رأس والدي وأطيب ذكر أمي بهذه الأعمال الصغيرة التي تهدف إلى معرفة الناس.. أنني تربيت في عائلة محبة وتعرف الأصول والعادات.. كما أنني فعلتها من أجل خالد أيضاً.. أتى الجمعة وحل المساء.. وحلت عائلةُ خالد أيضاً.. طرق الباب في الموعد المحدد.. فتحت الباب وخالد كان واقفاً وبين يديه باقةٌ جميلة.. دخلت والدته (بهلاهل) وهي أصوات تطلقها النساء وقت الفرح تعرف بدول أخرى (بالزغروطه) وجهَهم والدي إلى الصالون الذي نستضيف فيه الضيوف.. جلسوا جميعاً مع أبي وعمي وابن عمي الكبير.. وأنا وزوجة عمي اهتممنا بالضيافة.. بعد أن تم التعارف بين أفراد العائلتين.. افتتح موضوع الخطبة.. ودخلت أنا بصينية القهوة كي اوزعها وأضيف الحاضرين.. ونظرات خالد إليَّ كانت كأنه يرآني لأول مرة.. ثم أمه قالت: اسم الله على الجمال وحافظ

الجمال ما شاء الله.

- شكراً ياخالة.

- ربي يحرسك ويحفظك ويحميكي من العين والحسد يا زين ما اخترت ياخالد.

رد خالد: لقد ورثت ذوقي منك يا أمي.

. جلست بعد أن أكملت توزيع القهوة.. كانت النظرات تقتلني.. فخالد لم يرفع عينيه عني.. تم تحديد موعد الخطبة.. وكان قريباً جداً.. لأن كل شيء جاهز تقريباً.. وعليَّ فقط اختيار فستان الخطوبة وبعض الأشياء الأخرى.. لم أعهد خالداً مستعجلاً هكذا أبداً.. اعتقد أنه فكر بالزواج فوراً بدون الخطبة.. لولا التقاليد لكان طرح الفكرة أصلاً.. لكننا يجب أن نخطو خطوة خطوة.. مثلما املت علينا الأصول المتعارف عليها.. هناك بعد اختيار الغرفة وترتيب الاثاث.. جهاز العروس وغيرها من التقاليد التي لن تنتهي مدة صلاحيتها أبداً... كانت الفترة التي تمت فيها خطبتي وموعد الحفلة مليئةً بالمواعيد.. والتحضيرات.. كنت مشغولةً جداً بالأمور التي من المفروض أن خالد قد انهاها ..لكن تبين أنها تحتاج إلى لمسةٍ أنثويةٍ أيضاً.. كما أنني قضيت أكثر من ثلاثةِ أيامٍ اتجولُ حتى وجدت الفستان الذي كنت أريد شراءه لحفلة الخطوبة.. فستانٌ فضي أنيقٌ جداً.. طويلٌ توجد فيه نقوشٌ ناعمةٌ جداً من نفس اللون.. فتحته من الأمام تصل إلى الركبة.. كان رائعاص... كنت سعيدةً جداً.. فقط، احتاج وجود أمي بجانبي..

لتفرح معي.. كما أنه كان يفكر كثيراً بوالده.. فلقد فقد والده هو أيضاً.. لقد أصيب والده بالسرطان.. سرطان الدم.. المرض الذي أصبح من أكثر الأمراض فتكاً بالعالم... أخبرني يوماً أن والده عانى كثيراً.. بين جلسات العلاج الكيميائي.. والمستشفيات وبقائه كثيراً هناك.. حتى نقوله إلى تركيا للعلاج.. لكن دون جدوة.. فذبل وشحب لونه حتى خارت قواه.. واسلم روحه لربه.. لهذا أنا اشعر بشعوره.. وأعرف كم يتألمُ لأنني فقدت أمي أيضاً.. حينما كان خالد في منزلنا يتفق مع أبي على بعض التفاصيل.. في إحدى الليالي.. رن هاتفي.. كانت ريتا تكلمني لتهنأني على الخطوبة.. كم تمنيت أن تكون موجودةٌ معي في مثل هذا الوقت.. لكنها معذورةٌ فهي بعيدة.. لازالت بالأردن تنتظر الفيزا.. لطالما كانت ريتا من أفضل الأشياء التي حدثت معي في هذه الحياة.. كانت أختي وصديقتي وبئر أسراري.. كنا نكمل بعضنا البعض.. ولو أن الزمان لم يفرقنا.. لكانت الآن إلى جانبي.. لكن الحمد لله على كل شيء.. أعطتني بعض النصائح لأنها تعتبر نفسها خبيرةٌ في هذه المواضيع..

-ماذا سترتدين يوم خطبتك؟.

-ماذا سأرتدي؟.. فستان طبعاً!

- اقصد أرسلي صورته.

- سأرسل لكِ صورته طبعاً..

- وأنتِ ترتديه.

- حتماً.

- كنت اتمنى أن أكون بجانبك.. اهتم بكِ مثلما اهتممت بي.

- وأنا كذلك.. لكن أعرف أنكِ معي دائماً.

- أنتِ أغلى صديقةٍ لي.. وأحبكِ كثيراً.

- وأنا أيضاً..

اغلقت ريتا الهاتف.. وكان قلبي كان يبكي.. لا أعلم أحسست فجاةً بنوعٍ من الوحدة.. كنت فعلاً اتمنى وجودها بقربي كي تساندني.. لكن ما باليد حيلة.. أستاذن خالد على الخروج.. اوصلته إلى الباب لأودعه..

- لا تحزني سأعوضك عن كل شيء.. عن أمك.. وصديقتك وأخيك.

- من قال أنني حزينة

- أنا أعرف هذه العيون جيداً... سوف اجعلكِ سعيدةً.. ثقي بي.

- أعلم هذا.. وأثق تمام الثقة.

- أنتِ كل عالمي.

- وأنت أيضاً.

ما تطلبُه المَرأةُ الآن ليس فارساً كما نعتقدُ نحن، ولا رجُلاً يوّفِر لها كلَّ شيءٍ كما يقول شكسبير، ولا جِداراً تتكئ عليه كما تقوُل أمثالُنا، هي قادرةً على كل شيءٍ بنفسها، بلا فارِس وبلا رجل، لكنّها غيرُ قادرةٍ على أن تُحِب وحدها، الحبُ قانونٌ يربِطها مع هذا الرجلُ، فارساً كان أو طفلاً، غذاءُ المرأةِ هو الحبُ وليس

المال، ولا الفرسانِ ولا الرجال، هذا ما تريده المرأةُ لا أكثر(مقتبس).

توالتِ الأيامُ حتى قرب موعد الاحتفال بالخطوبة.. الجو جميلٌ ليس باردٌ ولا حارٌ.. أحد أيامِ الخريف.. اطبقت الساعة على السادسة.. أمسك خالد بيدي.. ودخلنا إلى الصالة.. وتمايلنا على أنغامِ الموسيقى الهادئة.. كان يقول لي كلَّ ما يخطر على باله من كلمات العشق.. وأنا احمرُ خجلاً ولا استطيعُ الرد.. أنا بين يديه في عالمٍ أخر أصبحت أعيش الروايات التي كنت استمتع بقرأتها.. والآن أصبحت حقيقة..

– أه تجعلينني أكتبُ في اليوم مئات القصائد والأشعار.. تجعلينني أخذ من وقتي كلَّ الوقتِ لأجلكِ.. اتشوقُ كلُّ لحظةٍ لكِ.. كلُّ كياني لأجلكِ عيناكِ توحيان لي أن أكتب الف بيتٍ من الشعر.. أن أؤلف الف حكاية عشق.. أهٍ من قلبي لو أهديكِ العمرُ ما اكتفيت.. اعذري قلبي لو خطفكِ مثل المجنون..

فأنتِ كل الدنيا وما حلمت وتمنيت.. توقفت الموسيقى.. ثم صفق لنا الجميع. وجلسنا على المقاعد المخصصةِ لنا.. حينها تقرب أبي وعمي كي يهنئوننا.. ثم أمُ خالد احتظنتني وقبلتني.. شعرت أن روحَ أمي تلف حولي.. لقد كانت دقائقَ وساعاتٍ جميلة.. التف حولنا الأقارب والأصدقاء.. وكانت سعادتنا لاتوصف.. همس لي حين كان يراقصني (أنكِ ملاكٌ سقط من السماء فتلقته احضاني).. لعله بالغ في الوصف.. لكن خالد هكذا.. كلامه يجعل قلبي يذوب.. يجعل شفتي ترتجف.. ولا اقدر الرد عليه.. لقد سارت الخطوبة على

خير.. وما أن مرت الأيام حتى لقيت نفسي احضر للعرس أيضاً.. وبين كل هذه المشاغل والأفكار التي تتعارك في اذهاننا.. نجد الوقت لأنفسنا.. كي نخرج ونتنزه قليلاً.. وقررنا الزواج بالنصف الثاني من العام الدراسي.. يكون موسمُ الربيعُ قد طل.. والأجواء جميلة.. كما أنه الوقت الذي تقابلنا في قبل عامٍ من الآن.. بدأنا فعلاً نعيش كأي اثنين سوف يكملان حياتهما معاً.. نذهب لدعوة بعضُ الأصدقاءِ والأقارب.. ونشاركهم الحديث.. وخاصةً بما يحصل حالياً في التقدم السريع للقوات العراقية في مدينة الموصل.. وبعض المناطق التي كانت تحت حكم الارهابيين..... بعض الأخبار التي نحصلُ عليها تفرحنا جداً.. اتمنى فقط أن ينتهي هذا الكابوس.. وتعودُ الموصل إلى أحضان البلد وأهلها.. كم اشتاقُ لها.. إلى بيتي.. مدرستي.. اشتقت إلى الشارع والأزقةِ.. إلى الجسور ونهر دجلة.. يا ليتني استطيعُ العودة يا ليت.. ما أجملها من أيام حين تكون بقرب الحبيب.. ويصبحُ هو محور الكون بالنسبةِ لك.. تستيقظ على صوته.. وتنام كذلك.. كان أهلُ خالد قد دعو إلى حفلِ زفافِ أحد أقاربهم.. وكنت مدعوةٌ أيضاً معهم.. كانت الأجواء جميلةٌ وأنيقةٌ.. جلسنا جميعاً على طاولة واحدةً مع أخوته وزوجاتهم.. كنت أجلس بالقربِ من أمه وعلي الجهةِ الأخرى يجلس خالد بجانبي.. كانت تنظر إليه والدته وعيناها تبرقان.. كانت متحمسةٌ جداً لتواجدي معهم في أول مناسبةٍ عائليةٍ سوياً.. تقرب مني وهمس..

– تعالي لنخرجُ قليلاً للخارج.. الجو لطيف.

- لكننا جالسون في عرسٍ.. ألا يكون عيباً.

- تعالي.. أريدكِ وحدنا لدقائق فقط.

- أستاذن من أمك لحظة..

- لا تتأخري.. انتظركِ خارجاً.

وشوشت أمه.. وأذنت لي.. كانت طيبةٌ في تعاملها معي.. بعكس ما كنت اسمع من زميلاتي أن حماتهن تزعجهم طوال الوقت.. وتدخل في كل أمر.. ولكن حماتي حماها الله كانت جوهرةٌ ثمينة وقلبها حنون جداً... وأسلوبها راقي في التعامل... أخذني من يدي وأخرجني إلى خارج الصالة.. كأنه يتصرف مثل المراهقين أو أحد الشباب الصغار الذين عرفوا الحب لأول مرة.. نزلنا من الدرك لأن الصالة كانت على ارتفاعٍ أعلى من سطح الأرض.. ثم نظر يميناً ويساراً يتلفتُ مثل اللص الذي سرق جوهرةً غاليةً وعليه أن يخبأها قبل أن يجدها أحدٌ معه... في مكانٍ مظلم أحاطني بيديه وظل واقفاً بدون أن يفعل شيءٍ سوى الابتسام.. وأنفاسه تتباطى كل ثانيةٍ أكثر... لم يتحرك ساكناً.. اجمعت شجاعتي ورفعت يدي لأتلمس ذقنه.. لم المسها من قبل.. حتى عندما قبلني في غرفة الفندق.. كانت قبلته فجائية لم أفكر بأي شيء وقتها.. وابتدأت المس شعيراته النامية على خديه.. وفوق شفتيه وذقنه.. أتحسس لحيته الخشنه السوداء التي لونت بشعيراتٍ بيضاء..

- كم أحب لحيتك.. إنها تزيدك رجولة على رجولة.

- ألا تزعجك؟. ألا تريدين أن أحلقها... إنها خشنةٌ بعض الشيء.

- أبداً.. إنها رائعة.. وتبدو وسيماً جداً بها.

- هل أبدو شهياً.

- خالد.....

- ماذا هناك.. أجيبي لا تخجلي..

- لا أعرف. ربما.. من الممكن.

- الن تخبريني شيئاً قاطعاً.

- لا، لن أخبرك.

وهربتُ مرةٌ أخرى من بين يديه وصعدت السلالم عائدةٌ إلى الصالة.. لو كنت بقيت دقيقةٌ أخرى كان من المحتمل أن أقبله.. عدت.. جلست بمكاني.. وقد لاحظت (سناء وهالة) زوجتا أخويه.. الاحمرار الذي على وجنتي.. لابد أنهما كذلك.. ثم بدأتا تهمسان بينهما وتضحكان.. وغمزت لي هالة.. فهمتُ ما كان يفكران به.. اطرقت رأسي إلى الأسفل خجلةٌ مما كانا سيقولان.. أو حتى الذي فكرا به.. ثم عاد بعدي هو.. لابد أنه أراد أن يعيد ترتيب نفسه.. قبل أن يعود إلى الصالة.. وهو بحالة المراهقين تلك.. ماذا يريد الإنسان سوى شخصٌ يحبه.. يحميه.. يقدره.. يعطيه كل الحنان الذي من الممكن أن يحتاجه.. وفي خالد كل تلك المواصفات.. طيبٌ حنون.. رجلٌ شهم.. وذا خلقٍ وأدب... مجتهدٌ بالنسبة لعمله.. محترمٌ بين الناس.. ويحترمه العالم.. وفوق كل هذا يحبني.. ويحبني

أكثر من هذا أيضاً... أسبوعٌ كاملٌ لم أرى فيه خالد قط.. كان قد سافر إلى البصرة من أجل الالتقاء بأقاربه.. ودعوتهم إلى العرس.. كما أن أخاه الكبير لايزال يعيش في البصرة.. لأن أمه وأخيه الأصغر انتقلو إلى بغداد قبل سنة من الآن.. بينما كنت أحضر نفسي للعام الدراسي الجديد.. وأضع الخطة التدريسية لهذا العام.. اتصلت بي هالة... لتخبرني أن هناك تنزيلات كبيرة في السوق.. ويجب علينا الذهاب لشراء الحاجات التي نحتاجها من أجل البيت والجهاز.. كوني العروس الجديدة واحتاج الكثير من المستلزمات.. وافقت طبعاً.. واتفقنا على أن نذهب سوياً.. أنا وهي وخالد.. لأنه سيعود في الغد.. ولأنها أفضل مني في هذا المجال.. كما أن لديها الخبرة في ذلك.. عاد خالد بالغد وعادت معه فرحتي.. كنت قد اتفقت مع هالة على الذهاب للسوق.. أخبرت خالد بالأمر.. ومر عليَّ في اليوم التالي.. كانت الساعة حوالي الحادية عشر صباحاً.. ومعه هالة.. استعديت وخرجنا للتجول بين المحلات الواحدة تلو الأخرى.. كان السوقُ مكتظٌ بالناس.. اشترينا الكثير وما عدنا نستطيع حمل الأكياس... تصادفنا مع مختلف الناس.. ومختلف الأعمار... السوق مزدحمٌ موسم التنزيلات دائماً هكذا.. تعبنا من التجول وحمل ما حملناه.. توقفنا عند مطعم كنا جائعين أيضاً.. دخلنا حجزنا طاولة.. طلبنا الطعام.. وأخذنا نفسنا لنرتاح.. ساعات ونحن نتجول في كل ركن.. حتى انهكنا التعب... وعند قدوم الطعام.. انتبهنا إلى أن الناس في الخارج تتراكض.. ثم سمعنا أصوات صراخٍ وعويل.. هناك شيءٌ ما يحدث.. شيءٌ خطير.. بل كارثة قد

حدثت فعلاص.. خرج خالد ليرى ما الذي يحدث كحال باقية الناس.. وإذا بعمارةٍ تشتعل بالنيران.. واللهيب يعلو أكثر وأكثر.. والدخان يملئ السماء.. ركضت خلفه ومعي هالة.. رأيت خالد ينظر بعينيه الواسعتين.. كان جسده كله تشجنج.. وضعت يدي على كتفه.. استدار إليَّ.. نزع سترته.. أعطاني إياها.. وركض إلى العمارة.. دخل إليها ليتلاشى مع اللهب المتصاعد هو وبعض

الشباب الذين هبوا للمساعدة.. كلٌ على قدر المستطاع.. يحاولون أن يخرجوا من كان عالق في ذلك المبنى.. وأنا اصرخ وراءه.. ولا أسمع سوى الصراخ من حولنا.. وخالد يختفي من أمام عيني.. كما أن شبابٌ أخرى دخلت ولم تخرج أيضاً.. ثم بعد القليل من الوقت خرج أحدهم وبيديه طفلة.. وكانت أثار الحرق على يده.. ثم سمعت صوت انفجارٍ ما.. ثم سمعت أصواتُ الناسِ تصرخ.

- أين المطافي بحق الله؟.

- وأنا اصرخ.. خالد خالد. خالد..

وصل الدفاع المدني.. أخرجوا بعض من علق في الداخل.. ولا وجود لخالد أو أيَّ أثرٍ منه.. لا يمكن أن يحدث ما أفكر به.. وأنا لازلت اصرخ وهالة تبكي.. وتحاول أن تهدأني.. ومن دون جدوى لم اتمالك نفسي لأنني تأكدت حينها.. أن كل شيء انتهى.. وانتهت معه حياتي.. ولم أرى سوى العالم يدور من حولي ثم ظلامٌ دامس.. كأنني وقعتُ في حفرةٍ غير متناهية.. أحلام كوابيس كانت تخالجني

وأنا في تلك الظلمة.. لا أفقه شيء..كأنني أعيش في عالمٍ كل ما حولي دماء.. لا تنفذ ولا تتوقف.. أحاول أن أعود للواقع كي اتخلص من كل ما يتصور أمامي.. لأول مرةٍ أريد أن أعود للواقع.. لعله اخف علي من الصور التي أراها الآن.. استيقظت وللوهلة الأولى.. التفت يميناً ويساراً.. لعلي أؤكدُ لنفسي أنني عدت من عالم الظلمات.. وجدت والدي واقفاً أمامي مع زوجة عمي الجالستُ على حافةِ السرير حيث كنت.. وأنا بدأت اتيقن لما يحدث وحدث.. صرخت بدون وعي.. خالد.. خالد.. لكن خالد لم يجب... حقنوني بالمهدأ وعدت للظلمة مرةً أخرى... افقت بعد ساعات.. وهذه المرة استعجل أبي كي يحتضنني وهو يهمس في أذني.

- لايزال على قيد الحياة.. خالد لم يمت...

أصبحت أبكي.. وأبكي.. هل هو فعلاً حي؟.. أريد أن

أراه... حينها دخل أخوه الكبير الذي قدم من البصرة بعد أن علم.. وكانت معه زوجته.. انحنت تقبلني.. والدموع بعينيها.. وهي تحاول أن تشرح لي عن حاله.. ويجب أن يبقى بالعناية المركزة لفترةٍ ما.. لكنه حي.. وقد زالت مرحلةُ الخطر.. لا يهم كم سيبقى.. المهمُ أنه على قيد الحياة.. إنه القدر يلعب معي لعبةٌ أخرى.. لكن هذه مؤلمةٌ جداً.. يحاول أن يلقنني درساً في الفراق.. يعطيه لي.. يبعده.. ثم يعود به.. ويحاول أخذه لأن الزمن يمكن أن يكون فاسداً لا يمنحنا شيئاً ألا ويعود ليسترده ثانية.. أنا في سريري لم أعد احتمل.. يومان ولا

استطيعُ أن أره.. كلُّ مرةٍ يخبرني الطبيب أنني يجب أن أصبح اقوى كي أراه.. لا أحد يدعني اتقرب منه.. لكن حالما أخرج.. سأذهب لكي استفقده.. أراه ولو حتى من بعيد.. توسلت الطبيب أن يخرجني.. وحينما وجد أنه لا فائدة من بقائي.. صرح لي بالخروج من المشفى على شرط أن انتبه لحالتي النفسية أكثر.. أن ابتعد عن التوتر والإجهاد النفسي.. ووعدته فقط لأرى خالد وسأتحسن.. ما أن خرجت حتى أخذوني إلى خالد.. بعد اصرارٍ مني بالطبع.. وصلنا لغرفته.. شاهدته من خلف الزجاج.. مربوطاً بعدة أجهزة.. وقناع الاوكسجين على وجهه والحروق الكثيرة التي كانت تغطي يديه وأعلى رقبته.. وقسمٌ من صدره.. كما تبين من الشاش الملفوف عليه... نظرتُ إليه وعيوني امتلئت.. ذلك الرجل المرح الذي لم يكن يتوقف للحظة.. مستلقي هناك على ذلك السرير بدون حراك.. لو يفتح عيناه فقط.. لو يعلم أنني بجانبه.. لو يحرك فقط أصابعه. كي أحس أنه لازال معي.. أخبرني الطبيب أنه يحتاجُ وقتاً طويلاً كي يستيقظ.. لأنه تحت المخدر.. كي لا يشعر بالألأم التي من الممكن أن يشعربها وهو مستيقظ.. احتضنت أمه ولم استطع تمالك نفسي.. فبكينا نحن الاثنتان.. ولكن نحمد الله ونشكره.. فهو لايزال حي.. وسيعود إلينا بأقرب وقت.. كنا جميعاً نتناوب على التواجد بقربه.. أسبوعان يمران.. وحالته تتحسن.. يستيقظ لبعض دقائق ثم يعود للنوم تحت المخدر لتقليل حجم الألم.. حين أُمسك بيده في بعض الأحيان وبالرغم من أنه ليس بوعيه.. يضغط على يدي بقوة.. يعرف أنني هناك انتظر

تحسنه بفارغ الصبر.. تتوالى الأيامُ ويصبح أفضل... ودقائق لقائه صاحياً تطولُ أكثر وأكثر.. حتى بدأت حروقه تشفى وجراحه تلتأمُ... أكد لي الطبيبُ أنه بأفضلِ حال.. لكن سيبقيه أياماً أخرى كي يتأكد أن كل شيءٍ على ما يرام... ازاحوا عنه كل الأجهزة.. والآن أصبح يتكلم قليلاً.. يبتسم كثيراً حينما يرآني.. أول ما يفتح عينيه.. يتكلم.. لا أريده أن يتوقف.. كان ساكتاً لأسابيعَ كثيرة.. الأطباء لا يريدون ارهاقه.. وأنا أيضاً.. لكني اشتقت إليه..ابشع شعورٍ ممكن أن تحس به.. هو شعورك بفقدان شخصٍ عزيزٍ عليك.. هو إحساسٌ شاقٌ جداً.. الإحساسُ بالفراقِ هو كلهيبِ الشمسِ ليس له حدود.. لا يحسه إلا من اكتوى به.. الإحساس بأن ليس بيديك حيلةٌ من أجل من تحب.. هو إحساسٌ بالقتلَ الصامت للقلب.. للعقل.. للمشاعر.. الجرح الذي لا يندمل.. الذي ليس به دواء.. تعجز الكلمات عن وصفه.. لذلك أردته أن يتحدث إليَّ.. كي أشعر أنه يُذيبُ ما في قلبي من خوفٍ ويأس..أتيتُ بعد ظهر الجمعة.. كي أبقى بجانبه.. لأن والدته كانت بجانبه صباحاً.. ولأننا عدنا إلى الدوام الجامعي.. فكان يجب على مباشرةُ التدريس بالجامعة.. كنت أذهبُ صباحاُ إلى كليتي وأعودُ ظهراً إلى المشفى.. ثم أعود مساءاً إلي المنزل... بعد أن نتناوب على البقاء بجانب خالد... جلست على الكرسي بجانب السرير.. كان قد غفى.. أخذتُ كتاباً كي اقرأه حالما يستفيق..... وبعد عدةِ صفحاتٍ.. استيقظ.. مبتسماً كعادته حين يرآني..

– ماذا تقرئين؟

- روايه لباولو كويلو

- هل هي مشوقه؟

- إنها رائعة..

- أنا متأكد من أختياراتك.

- طبعاً، فأنت إحدى خياراتي.

- هذا رائعٌ إذاً.

- كيف حالك اليوم؟.

- أفضل.. وخاصةً حين أراكِ.

- لا تتعب نفسك.. ارتح كي تتحسن بشكلٍ اسرع.

- كنت أفكر بروايتك المفضلة.

- أيٌّ منهم.. لدي الكثير من الروايات المفضلة.

- لكن لديكِ واحدةٌ.. الأحب إلى قلبك.

- اتقصد (ذاكرة الجسد)؟

- نعم.. في الرواية التي تعرفت عليها على حبيبك.

- نعم.. وماذا في ذلك؟

- اعتقد الآن أصبحت نسخة من خالد بن طوبال.

- ماذا تقصد.. لم أفهم؟.

-نحن الاثنين نحمل ذاكرتنا على جسدنا..

- اها. فهمت قصدك... وأنتما الاثنين أبطالٌ أيضاً.

- بطلٌ.. هل تعتقدين أنني فعلاً بطلٌ؟.

- طبعاً بطلٌ.. من يفعل ما فعلت يجب أن يكونَ بطلاً.

-لا أفعل شيئاً مبالغٌ فيه كما تقولين... قمتُ بفعل ما أؤمن به.

- طبعاً.. كدت أن تضحي بنفسك من أجل الأخرين.. ألا يسمى هذا بطولة.

- لكنني لم أبحث عن البطولة في هذا العمل الذي قمتُ به.

- ولا خالد بن طوبال كان يبحث عن البطولة.. بل كان يفعل ما كان مؤمناً به.

- سأفعلها مرةً أخرى لو حدث نفسُ الشيء.

- أنا متأكدة من ذلك.

اغلقت كتابي.. وتقربت منه لاطبع قبلةٌ خفيفةٌ بين شفتيه وخده.. لأشكره أنه لم يرحل عني.. لأخبره أن الحياة التي بيني وبينك ستبدأ من جديد منذ هذه اللحظة.

حزينٌ من لم يمر بيارق الحب في شوارع عمره.. الذي لايقاسمك وحدتك.. حزنك.. حتى ألمك لا تأخذه على محمل الحب (غاده السمان)

مرت الأيام.. خرج خالد من المشفى.. وكان على مايرام.. عاد للجامعة

والتدريس.. في يومٍ من أيام الربيع.. قدم إلى يخبرني بمفاجأة.. كان قد رتبها لي.. لقد حجز لنا مقاعد على الطائرة الذاهبة إلى اربيل.. ثم بعدها نذهب إلى الموصل... لقد رتب لذهابنا إلى الموصل إلى البيت الذي تربيت فيه.. إلى المدرسة التي التقيت فيها به.. نزلنا في اربيل.. استأجرنا سيارة أجرة.. اوصلتنا إلى منزلي.. كان والدي معنا.. هناك خطيت أول خطواتٍ منذ سنين... أبي دخل إلى مكتبته التي تركها منذ سنين.. كانت مبعثرة ومتربة.. لا شك أن المفسدين عبثاو بالمنزل.. دخلت إلى غرفتي.. وجدت بعض الكتب المرمية على الأرض.. بعض الملابس والاثاث الذي لم يتبقى منه شيءٌ يذكر... حاولت أنا وخالد رفع بعض الأشياء.. وبينما نرتب المكان.. جاء تحت يدي روايتي المفضله.. نظرت إلى خالد.. وأنا أريه إياه.. تقرب مني.. أخذه من يدي ليتفحصه.. ويرى العلامات التي كتبتها والخطوط التي خطيتها عليه.. ثم يجد ورقة مطويةٌ وموضوعةٌ فيه.. سحبها من صفحات الكتاب فتحها.. كانت قصيدته... ابتسم لي وقال.

– لقد وجدتها... انظري إنها تنتظر هنا.. تنتظر أن تخبريني برأيك فيها...

نعم.. لقد كانت القصيدة التي كتبها من أجلي.. هناك مع الكتاب تنتظر أن تعود لأصحابها.. وقد عادت.. مثلما عادت مدينتي إلى أصحابها الحقيقين.

– هل لازلت لا تعرف ماهو ردي على قصيدتك.

– ولكن أريد دائماً سماعها منك.

– سيكون ردي دائماً نفسه.. أنت أجمل ما حدث لي.. وقصيدتك هي أجمل

ما رأت عيني.

– لدي مفاجأة أخرى.. معي بطاقتان سفر إلى المدينة

المعلقة بين الأرض والسماء.

–هل ذاهبون إلى قسنطينه؟

– سنذهب إليها.. ستمرين من على جسورها تستنشقين هوائها.. وتمشين بالطرقات التي مشى عليها يوماً ما خالد بن طوبال.

كانت سعادتي لا تصدق.. خالد بن طوبال ولِدَ من جديد.. وأهدتني إياه الحياةُ على شكل معجزةٍ حقيقية.. من كان يصدق أن الأحلام ممكن أن تتحقق.. بل قد تحققت ولو جزءٌ منها.. بل أهمُ جزءٍ.. إلا أن الأحلام ممكن أن تتحقق إذا أردتها بكل قوتك رغم كل العواقب التي من الممكن أن تصادفك.. تفائل دائماً فالله يفتح لك طريقاً أخر.. دائماً ثق به.. والآن نستطيع أن نعيش عمراً على الذكريات.. بحلوها ومرها.. فهي ما تقوم عليه حياتنا.. ومايتبقى لنا من سنينٍ نعيشها.. فنحتفظ بها في ذاكرتنا... إلى الأبد

تمت

للتواصل مع الكاتبة عبر البريد الإلكتروني

rosetarose8@gmail. com